

الإسلام.. وتحديات العصر

دكتور/ عبد الحليم عويس

الإشراف الفنى :

مصطفى كامل

المتابعة :

صفوت عكاشة



المقدمة:

فى كلمة كتبها الدكتورمهدى علام - رحمه الله - تقديماً لأحد الكتب قال:

«إن عصرنا الحديث مليىء بالتيارات الفكرية والنزعات المذهبية التى تنتشر بين ناشئتنا، وتحتاج إلى نظرة فاحصة تميز الخبيث من الطيب، فالإسلام لا يعادى جديداً إلا إذا كان ضلالاً، ولا يصدّ عن تطور إلا إذا كان انحداراً».

- وقال أيضا:«إن الإسلام دين الحرية، ودين العقل ودين التطور والتقدم، ودين البطولة، ودين كل قيمة رفيعة أصيلة، ولكن الإسلام لا ينخدع بكل ما يذكر باسم الحرية، واسم العقل، واسم التطور والتقدم، واسم البطولة، بل لابد من تميز الحق من الباطل والأصيل من الزيف».

وهذا الذى يذكره الدكتور مهدى علام حق كله.. فان قوما الآن يدعون الناس إلى الحرية، وهم لا يريدون من الحرية إلا تحويل الحياة إلى حظيرة يعف الحيوان أن ينزل إلى مستواها، لأن الحيوانات كلها - حتى اليوم - لم يتزوج فيها الذكر الذكر، والأنثى الأنثى، بل - بقوانين الفطرة وحدها يتزوج الذكور الإناث.. فى حظائر الحيوانات النظيفة.. وهم لا يريدون من الحرية - إلا هدم الأديان والأخلاق، خدمة لبعض العقائد والاتجاهات..!!

فهذا هو فهمهم للحرية وغايتهم منها.. وهؤلاء، ومعهم آخرون، يدعون إلى تأليه العقل البشرى، ويضعون العقل فى كفة والأديان وعلى رأسها الإسلام بخاصة - فى كفة أخرى، فإما هذا وإما ذاك.. ويقصد هؤلاء كذلك القضاء على الدين كله.. وإلغاء الوحى باسم العقل، والادعاء الكذوب بأن هناك نزاعاً بين العقل والوحى والدين والعلم.

مع أن العقل شقيق للدين وشارح له ومؤكد لحقائق ومن غير العقل

لا يمكن القيام بالتكاليف، ولا يمكن أن يعمل الدين فى الحياة..مع غير العقلاء.

☆ ☆ ☆

ولهذا جاءت أول قضية فى هذا البحث تحت عنوان:
العدل فوق الحرية والمساواة...
ثم تكلم البحث عن التكافل كنموذج للمجتمع الإسلامى والإنسانى الراقى المتكافل معنوياً وأخلاقياً ومادياً.. وليس مادياً فقط كما يتصور الناس عندما يتحدثون عن العدل الاجتماعى أو الضمان الاجتماعى.
وعرض البحث لقضية ارتباط نهضة الأمة وانتصارها بالتوحيد والوحدة.. أى بالعقيدة الموحدة.
وعرض أيضا عرضا موسعاً لقضية النزاع المزعوم بين العلم والدين، أو ما يسمى بالاجتهاد فى أمور الدنيا، وهو فرض كفاية فى كل العلوم العصرية النافعة التى تقدمت بها أوروبا وأمريكا، وكشف البحث عن المؤاخاة الكاملة بين الدين والعلم، والوحى والعقل فى التاريخ الإنسانى كله والإسلامى بخاصة.
ثم عرض للاجتهاد فى أمور الدين ومجالاته وآفاته بالنسبة للعصر الحديث.

☆ ☆ ☆

وأسأل الله أن يستفيد الناس من هذا البحث وبخاصة هؤلاء الذين يسعون لهدم الإنسانية، من حيث يحسبون أنهم يحسنون صنعا هؤلاء المساكين الذين يرفضون الدين والوحى، ويدعون الناس لعبادة العقل أو ممارسة الحرية بالمعنى الحيوانى.
هداهم الله.. أو أنقذ الإنسانية منهم.

والله ولى التوفيق

دكتور / **عبدالحليم عويس**

العمل.. شرع الله

كـان مـصطلح «العـدل» ومـايزال من أهم المصـطلحـات فى تاريخ الإنســان، وهو مـصطـلح شـامل يتـضـمـن العـدل بين الحــاكم والمحكومين، وبين الفرد والجمـاعة الكبيرة وهى المجتمع، والجـماعة الصـغـيـرة وهى الأسـرة، بل ان الإنسـان مطالب أن يعـدل فى حق نفسـه، ولا يظلم نفسه وأن يعدل فى حق الله فـلا يشرك معـه غيره

﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾(١).

﴿ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ﴾(١)

وفى فقه السـياسة الشرعيـة ان (الحاكم العادل) غيـر المسلم، أو غير التـقىّ أفـضل للأمـة من الحـاكم المسلم الظالم، وقـد علَّل فـقـهـاء السيـاسة الشرعـية ذلك بأن الحاكم العـادل للأمة عدله للأمـة وعليه كفـره أو فسقـه، وأما الحـاكم الظالم فعلى الأمة ظلـمهُ، وله دينه أو تقواه الشخصية!!

- والأمة الـظالمة يُسلط الله عليهـا من يهزمـها، حـتى ولو تظاهرت بالإيمان بينما يمهل الله الأمة الكافرة العادلة!!

---

(١) لقمان آية (١٣)

(٢) الطلاق (١)

- والحضـارة الحديثـة ماضلت إلا عندما نظرت إلـى (العدل) نظرة تمزيقية فقررته فى بلادها وبين مواطنيهـا إدراكاً منها لأهميته، لكنها ظلمت الشعوب الضعيفة واحتلتها وأذلتها وفرضت عليها التخلف والتبعـية، وحرمتها من الـتعليم والإبداع الكفيلين بتقدمـها، بل إنها تظلم - نسـبيـاً - العناصـر الوافدة على بلادهـا وتمنعهـا من تكوين المؤسسـات الكفيلة بحمـاية هويتها، فعْـد لها عدلُ مـصالح، وليس عدل عقيدة وأخلاق!!

- لكن (العدل) فى الإسلام ركن من أركان تـنظيم الإسلام للحياة، وهو مقـصد من المقاصـد الشرعيـة التى يجب أن تدور الأحكام فى فلكها.. فحيثما تحقق العدل فهناك شرع الله، ولا يمكن أن تتعارض الأحكام الشـرعـيـة مع العـدل، لأنه لا يجـوز- بمنطق العـقل - أن تتعارض هذه الأحكام مع هـدف كبير من أهداف الحيـاة، والبشرية بتجاربهـا النسبية تريد عدلاً نسـبياً لا يضر بمصالحـها، لكن الإسلام الذى جاء رحمة للعالمين، والذى يعلن ان الإنسانية فى خُسْران مبين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصـوا بالحق وتواصوا بالصبر فى إقامة الحق...

- هذا الإسـلام يقـيـم دعـائم الحـق مع الحبّ والكره، ومع الـنفع والضـرر، ومع المصـلحـة وانعـدام المصلحـة، وبين المرأة والرجل، والفرد والمجتـمع، وفى الأمور الاقتصادية والاجـتماعية والسيـاسية على حد سواء.

- وقـد درج الناس على استعـمـال كلمـة (العـدل) فى مسـتـواها

السياسى والاجتماعى، وكثيراً ما يقيمون الثورات والنقابات والأحزاب من أجل جانب واحد من العدل، وبالتالى يتم التركيز على هذا الجانب فيقع الظلم فى الجوانب الاخرى.

- وانطلاقاً من تجربة العصور الوسطى الأوروبية ركزّ الغَرْبُ على العدل الاقتصادى والاجتماعى، فأخطأ الطريق، لانه تصوَّر أنَّ الفرد هو الذى يظلم المجتمع فسحق الفرد تحت مظلة الشيوعية، وتصور - مرة من خلال تجاربه النسبية - ان المجتمع هو الذى يظلم الفرد فسحق المجتمع والأخلاق تحت مظلة الرأسمالية، وأصبح مفهوم «الحرية» كرة يتداولها الفريقان كأنهما فى ملعب!!

بَيْدَ إن الإسلام وازن فى عدْله بين جميع القوى الفاعلة فى الحياة، وأعطى كل ذى حق حقه، فأصبح مفهوم «الحرية» منضبطاً متوازناً لا يطغى فيه المجتمع على الفرد ولا الفرد على المجتمع، وأصبح مفهوم «المساواة» مفهوماً شرعياً مرتبطاً بالعدل، فالعدل هو الميزان الذى يضبط حركة الحرية وحركة المساواة، وهو أيضاً الضامن لتحقيق إنسانية كل الناس وكرامة البشرية كلها.

☆ ☆ ☆

- لقد جاءت تعاليم الإسلام تكرم كل الناس بصفاتهم الإنسانية، بصرف النظر عن أصولهم وألوانهم وأديانهم.... يقول الله تعالى فى القرآن الكريم: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾(١)

(١) الإسراء (٧٠)

- ويقول الله أيضاً: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾(١)

- ويقرر الإسلام فى شريعته العدل لكل الناس، بصرف النظر عن أجناسهم وأديانهم ومدى قربهم من الإنسان أو بعدهم عنه... يقول الله تعالى: «

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ ﴾(٢)

ويقول الله تعالى أيضاً:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ ﴾(٣)

وإذا كان الإسلام قد قرر كرامة الإنسان وأفضليته بصفته الإنسانية المطلقة المجردة، كما انه قرر العدل بين كل الناس بصفتهم الإنسانية، بعيداً عن النظر إلى أديانهم وأجناسهم - فإنه قد قرر أيضاً حرية الإنسان الدينية بصفة عامة، وحرية أصحاب الأديان السابقة بصفة خاصة، حيث إن جوهر الأديان الصحيحة النازلة من السماء واحد لا يمكن أن يتناقض... يقول الله تعالى فى القرآن للرسول عليه السلام مؤكداً هذه الحقيقة ومعترفاً بهذه الأديان السماوية الصحيحة السابقة، ومطالباً كل الأديان: (الإسلام والمسيحية واليهودية) بالاحتكام إلى الحق والعدل.. يقول تعالى:

---

(١) التين (٤)
(٢) المائدة (٨)
(٣) النساء (٥٨)

﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾(1)

ويقول:

﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم ﴾(2)

ويقول: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾(3)

فالإسلام مكمل للأديان السابقة وخاتم لها، ومطهرها مما أصابها من أهواء الناس، والمدافع الأعظم عن كرامة كل الأنبياء عليهم السلام ومصداقيتهم...!!

- بالإضافة إلى هذه النظرة الكريمة السمحة إلى الأديان السابقة

(1) فصلت (43)
(2) المائدة (48)
(3) الشورى (13)

يؤكد الإسلام - عبرْ آيات قرآنية وأحاديث نبوية - كثيرة- حرية العقيدة لكل الناس، فيقول الله فى القرآن:

﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴾(1)

ويقول القرآن أيضاً:

﴿ وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ ﴾(2)

ويقول:

﴿ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكُواْۗ وَمَا جَعَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗاۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ﴾(3)

ويقول: ﴿ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾(4)

- لقد أخذ الإسلام بمبدأ الحرية الدينية قبل أن تعرفه دول الأرض جميعا. وتقوم هذه الحرية الدينية فى الإسلام على ثلاثة مبادئ:

١- الحرية فى اختيار الدين

٢- الحرية فى المناقشات الدينية

٣- الإيمان الصحيح ويكون مبنيا على إقناع وإقتناع

- وبالنسبة للمبدأ الأول: وهو الحرية فى «إختيار الدين» الذى يعتنقه «الإنسان» فلا يرغم الإسلام أحداً على ترك دينه، واعتناق الدين الإسلامى.

(1) البقرة: ٢٥٦
(2) الكهف: ٢٩
(3) الأنعام: ١٠٧
(4) يونس: ٩٩

- فقد سار المسلمون على هذا المبدأ فى حروبهم، فكانوا يتركون أهل البلاد المفتوحة وما يدينون به بشرط الولاء للحكومة الجديدة. وفى ذلك يقول عمر بن الخطاب- رضى الله عنه- فى كتابه إلى أهل المقدس بعد فتحه: «هذا ما أعطى أمير المؤمنين إلى أهل إيلياء من الأمان... أعطاهم أمانا لأنفسهم ولكنائسهم ولصلبانهم.. لا يكرهون على دينهم، ولا يضام أحد منهم».

ومن آثار الحرية الدينية ما رسمه الإسلام من حسن معاملة الذميين، إذ يقول الله تعالى فى كتابه العزيز:

﴿ لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾(١)

- وبالنسبة للمبدأ الثانى: وهو حرية المناقشات الدينية، فقد أتيحت هذه المناقشات للمسلمين ولغير المسلمين، حتى إن الخلفاء أنفسهم كانوا يشتركون فى تلك المناقشات، ويقول الله فى القرآن الكريم:

﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ ﴾(٢)

---

(١) الممتحنة: ٨، ٩

(٢) العنكبوت: ٤٦

ويقول لأهل الديانات غير الإسلامية:

﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[1]

ويقول سبحانه وتعالى

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾[2]

– وبالنسبة للمبدأ الثالث: وهو الإقناع والإقتناع قبل اعتناق الدين الإسلامى، بحيث لا يرغم أحد على ترك دينه، لأنه لا جدوى من الإيمان بغير اقتناع، فالمسلم إذا كان ضعيف الإيمان، مخلخل العقيدة، لا يمكن الاعتماد عليه أو الإعتداد به... فكيف بإرغام غير المسلم؟!! إنه لا يجوز بمنطق الإسلام!!

– ولذلك يحث الإسلام على التفكير العقلى الجاد فى مخلوقات الله والإيمان إيماناً صحيحاً سليماً. فقد رأى بعض الفقهاء أن إيمان المقلد غير صحيح.

– ويقول الإمام محمد عبده فى ذلك: «إن التقليد بغير عقل ولا هداية هو شأن الكافرين، وإن المرء لا يكون مؤمناً إلا إذا عقل دينه وعرفه بنفسه حتى أقتنع به».

(١) البقرة: ١١١ (٢) آل عمران: ٦٤

حقوق الإنسان بين العدل والمساواة:

من عظمة الإسلام أنه يمزج بين العدل والمساواة، فالحق أنه لا حرية ولا مساواة بلا عدل، وبلا شريعة حاكمة للناس جميعا على قدم المساواة. وكل شعارات تنسى العدل ووسائل فرضه وحمايته هى شعارات فارغة المضمون تخدع المظلومين!!

وفى الإسلام تختلط كلمة المساواة بكلمة العدل، فكأنها كلمة واحدة، أو عملة ذات وجهين، وهذا حق لا شك فيه، فالعدل يفقد معناه إذا كان لأصحاب دين دون دين أو لقومية دون قومية، أو لطبقة دون طبقة، بل يجب أن يكون مطلقا بلا حدود كما يقول الله سبحانه وتعالى فى القرآن:

﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾[1]

فالمساواة فى الحقوق والواجبات وأمام العدالة من الحقوق الأساسية للإنسان ولا يجادل فى هذه الحقوق إلا عدو للإنسانية.

وقد كان الإسلام أسبق من كل النظم المعاصرة، وأزكى فى تقدير هذا الحق الفطرى، وهو أن الناس فى الإسلام سواسية لا تفاضل بينهم.. فكلهم لآدم وآدم من تراب، ولا فرق بين الرجل والمرأة، والغنى والفقير فى القيمة الإنسانية، فلا تفاضل بين الناس فى هذه الناحية إلا بالعمل الصالح والكفاءات الممتازة، وبما يقدمه كل فرد لربه، ولإخوانه ووطنه.

(١) سورة النساء: ٥٨

لقد قضى الإسلام على الطوائف والعصبيات الجاهلية؟ فلا تفرقة بين الطابقات، ولا بين العبيد والأحرار.. فكان الرسول - صلى الله عليه وسلم- يقرب إليه كثيرا من العبيد، ويقدمهم على بعض الصحابة الأحرار، كما كان يرسلهم قادة على الجيوش التى تضم بين صفوفها خيرة الصحابة وأجلاءهم، فلا تفرقة فى الإسلام من أجل حسب أو نسب. يقول تعالى:

﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾(1)

- ولم يفرق الإسلام بين الحر والعبد - أيام كان هناك عبيد- بل جعلهما متساويين فى القيمة الإنسانية، ويقول رسول الله - صلى الله عليه وسلم- فى خطبة الوداع: «يا أيها الناس: إن ربكم واحد و إن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، ليس لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى، ولا لأحمر على أبيض، ولا لأبيض على أحمر فضل وألا بالتقوى.... ألا هل بلغت؟! اللهم فاشهد، فليبلغ الشاهد منكم الغائب.

ويروى أن أبا ذر الغفارى تناقش مرة فى حضرة النبى مع عبد زنجى، فاحتد أبو ذر على العبد وقال له: يا ابن السوداء، فغضب الرسول-

---

(1) النحل: ٩٧ وانظر الأستاذ توفيق على وهبة: حقوق الإنسان بين الإسلام والنظم العالمية، نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية (مصر)

عليه الصلاة والسلام- وقال «طفَّ الصاع، طفَّ الصاع «أى زاد الأمر عن حده» ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بالتقوى أو بعمل صالح» فحزن أبو ذر ووضع خدّه على الأرض، وقال للعبد «قم فطأ على خدى» فليس فى الإسلام إنسان أكرم من آخر بفضل حسبه ونسبه، بل الكل سواسية، ولا تفاضل إلا بالعمل الصالح فقط.

وهذا من الناحية الإنسانية البحتة...

أما أمام قانون الإسلام ـ فالمساواة قائمة كذلك : قال الله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَى بِالْأُنثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ﴾(1)

وقال أيضا :

﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ ﴾(2)

وقال كذلك: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ﴾(3)

---

(1) البقرة آية ١٧٨

(2) المائدة آية ٤٥

(3) النحل ١٢٦

وينبئنا التاريخ الإسلامى أن تلك القواعد السمحة القويمة حول المساواة أمام القضاء كانت منفذة بحذافيرها أيام الرسول والخلفاء الراشدين، فيروى أن أسامة بن زيد وهو من أحبّ الصحابة إلى رسول الله، جاء إلى النبى صلى الله علية وسلم- ليشفع فى فاطمة بنت الأسود المخزومية، وكان قد حكم عليها بحد السرقة حيث إنها سرقت قطيفة وحلياً، فغضب رسول الله- صلى الله عليه وسلم- وأنكر موقفه هذا على الرغم من حبه له، ولم تشفع له منزلته من رسول الله، وقال له - صلى الله عليه وسلم- «أتشفع فى حدّ من حدود الله» وقام فخطب فى الناس وقال: «إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحدّ، وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها»[1]!!

ولقد شكا يهودى علياً- رضى الله عنه- إلى عمر بن الخطاب فى خلافة عمر، فلما مثلا بين يديه خاطب عمر اليهودى باسمه، على حين خاطب علياً بكنيته فقال له : «يا أبا الحسن» حسب عادته فى الخطاب معه، فظهرت آثار الغضب على وجه علىّ، فقال له عمر: أكرهت أن يكون خصمك يهودياً، وتمثل معه أمام القضاء على قدم المساواة فقال علىّ: لا، ولكننى غضبت لأنك لم تسو بينى وبينه، بل فضلتنى عليه إذ خاطبته باسمه، بينما خاطبنى بكنيتى ...!! ويروى أن أبن عمر بن العاص ضرب رجلا من دهماء المصريين، حينما

(١) متفق عليه

كـان أبوه والياً على مـصر ، فـأقسم المجـنى عليه ليـشكوه إلى أميـر المؤمنين «عـمر بن الخطاب» ، فـقال لـه : اذهب فلن ينالنى شئ من شكواك، فأنا ابن الأكرمين، وبينما كان الخليفة عمر بن الخطاب مع خاصـته ومعـهم عمـرو بن العاص وابنه فى مـوسم الحج، قدم هذا الرجل عليهم، وقال مخاطباً عـمر: يا أميرالمؤمنين: إن هذا - وأشار إلى ابن عـمرو- ضـربنى ظلما ولـما توعدته بأن أشكوه إليك قـال: «اذهب فـأنـا ابن الأكـرمـين».. فنـظر عـمـر رضى اللـه عنه- إلى «عمرو» وقال قـولته المشهورة : «متى أستعـبدتم الناس وقد ولدتهم أمـهـاتهم أحــراراً» ثم توجـه إلى الشـاكى وأعـطاه درته، وقـال له «أضرب بها أبن الأكرمين كما ضربك»!!!

☆ ☆ ☆

وهكذا من الناحيـتين الإنسانية والـقضائية تتـجلى «المساواة» التى وضـعهـا الإسلام بين الناس، فـلا فـضل إلا بالعمل الصـالح فى الدنيـا والآخـرة... وأديانهم وأحـسـابهـم مـوكـولة إلى الله يوم القيامة، أمّا فى هذه الدنيا فالشريعة تقوم على العدل والمساواة بين الناس جميعا.

الأفضلية بين الدين والجنس:

- كان اليهـود بالدين الصحيح الذى أنزله الله على مـوسى - الأمة المفضلة على العالمين- فـما خان اليهود أمـانة الوحى، وحولوا الأمر إلى أفضلية عنصرية، حـول الله الوحى عنهم إلى المسلمين العرب، وجعلهم - بالرسالة- خير أمة أخرجت للناس.

لكن الإسـلام يرفض أن يكون ذلك مـرتبطا بـالجنس، بل يأمـر بوضوح أن يكون ذلك مرتبطا بالعقيدة الصحيحة والأخلاقيات والقيم، فلا خيرية إلا بالقيم المفتوحة لكل الناس، ولا يسمح القرآن بالظلم أو الأستعلاء اعتماداً على هذه الخيرية المشروطة، بل يفرض الأدب والحوار الأخلاقى مع الجميع:

﴿ يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ ﴾(1)

﴿ وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴾(2)

- ويأمر المسلمين بأن يتركوا أمر الفصل النهائى فى الأفضلية لله هناك فى الآخرة، وليس فى هذه الدنيا، و أن يلتزموا بالأدب مع مخالفيهم، بقوله تعالى:

﴿ وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرۡجِعُهُمۡ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾(3)

- ومأساة الإنسانية المعاصرة تتجسد فى موقفين:

● موقف اليهود أهل التوراة القوى المنظم والفاعل المؤثر والعالى، والآخذ بكل أسباب القوة والهيمنة، وهم الذين يفرضون المفهوم العنصرى الاستعلائى اللاقيمى على العالم،

---

(1) آل عمران ٦٤
(2) سبأ ٢٥
(3) الأنعام ١٠٨

وتبدوا الحضارة الأوروبية مخدرة ومغيبة أمام الضغط التوراتى الصهيونى!!

● موقف المسلمين المنهزم المتخاذل المتاكل داخليا، والمتصارع بين أجزائه سياسيا وفكريا.. والمتخلف حضاريا.... وهم أهل القرآن الذى يحمل مشروعا إنسانيا غير عنصرى»!!

- وهذه المأساة الإنسانية المتجسدة فى هذا الخلل تجعل أصحاب الموقف الأول يمتدون فى فراغ دون مقاومة تذكر، ودون وجود حقيقى للطرف الآخر، بحيث يلفت إليه أنظار العالم الذى يشعر بالأزمة الإنسانية المعاصرة، ويكتوى بنارها، ويكاد يبصر آفاق المستقبل المظلم الذى ينتظره.

وليس ثمة من أمل فى إنقاذ سفينة البشرية إلا بيقظة إسلامية تكفل وعى المسلمين بذاتهم وحقيقتهم ورسالتهم، كأمة شهيدة على الناس، قائمة بالدعوة إلي الحق والعدل والمساواة التي أمر الله بهما سبحانه وتعالي في آيات قرآنية كثيرة، نكتفي منها بهذه الآية الكريمة التي تعدّ قانوناً شاملاً، وخطاباً إنسانياً عاماً. وميزاناً عادلاً ثابتاً ينتظم كل الناس..

يقول الله في القرآن الكريم:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾(١)

---

(١) الحجرات: ١٣

- فالناس جميعا سواسية، واختلافهم للتعاون والتعارف، والتفاضل يكون بالعمل المقرون بالصلاح. وحسابهم ـ بعد ذلك ـ على الله..

- وأما اختلاف الألوان والأجناس فلا قيمة له أمام عدل الله، وشريعة الله، وموازين الله التي تزن الأمور بميزان عادل دقيق:

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾[1]

صدق الله العظيم

---

(١) الزلزلة (٧ـ٨)

التكافل الاجتماعى

إطار التكافل الاجتماعى الإسلامى

عندما نتحدث عن التكافل الاجتماعى فى الإسلام يجب أن نعلم أننا نعالج عضواً فى جسد، وجزءاً من كل؛ فالتشريع الإسلامى بينما يعالج قضايا الحياة المختلفة ـ اجتماعية كانت أو اقتصادية ـ فإنه يبقى دائما نسيجاً محكماً لاينفصل فيه جانب عن الجوانب الأخرى. ـ بل إن التشريعات الإسلامية كلها لاتنفصل عن الإسلام (الكل) وبالتالى لابدَّ للتشريعات أن تقوم فوق عقيدة نقية، وأن ترتبط بالجوانب الاخلاقية والعبادية.

ولعل هذا الارتباط بين الجزء والكل أهم الفروق بين الإسلام والفلسفات الاجتماعية والاقتصادية الوضعية التى تعالج قضايا الإنسان بطريقة تمزيقية، وقد يدفع هذا إلى تضخيم الجانب الذى تعالجه على حساب الجوانب الأخرى، كما أنه يدفعهابالتأكيد إلى التعامل مع الإنسان ـ فى إطاره الشامل ـ بطريقة خاطئة.

والتكافل الاجتماعى نوع من التقْعيد النظرى الرحيم للأسس الصالحة لقيام المجتمع البشرى المتماسك الذى لاتقوم العلاقة فيه

على أساس القواعد التشريعية فحسب - حتى مع شمولية هذه القواعد وسموّها - بل قد توجب بعض الحالات الارتفاع فوق هذه القواعد؛ وذلك مثلما فعل الأنصار مع المهاجرين عندما شاركوهم فى دورهم وأموالهم، بل وقد عرض الأنصار على إخوانهم المهاجرين أن يقتسموا معهم هذه الأموال والعقارات مناصفة... فهذا نوع من الإيثار (والتكافل) لم يجعله الشرع فرضاً، وتَركَهُ للمستوى الأخلاقِّى للمسلمين فى ظل معانى الرحمة والأخوة الإسلامية.

ومن العجيب أن الأنصار لم يعطوا ماأعطوا استشعاراً منهم بواجب شرعى تمليه عليهم قواعد تشريعية، وإنما فعلوه بنوع غريب من الحبّ، ودرجة كبيرة من الإيثار خالية تماماً من مشاعر الأثرة والشحّ ... قال تعالى فى تصوير هذه الحالة الفريدة فى التاريخ:

﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾(١)

ومن السياق السابق نعلم أن التعامل مع الجوانب الاجتماعية فى الإسلام يقف فوق أرضية عقدية وفكرية ونفسية وأخلاقية معينة، وأن المسلم يعالج هذه القضايا فى إطار مفاهيمه الإيمانية الكلية، فهو لايقوم بها لأنها أوامر قانونية، ولا قضايا مصلحية عامة، يتبادل فيها

١- الحشر : ٩

الفرد والمجتمع الخدمات بطريقة جدلية تبادلية.. وقد تنتهى هذه العلاقة بمجرد الشعور بانقضاء المصلحة، أو بالتحايل على القانون، فالأصل العقدى والعبادىّ للقضايا الاجتماعية فى الإسلام، والمنهج الذى يجعلها جزءا من كل لاتنفصل عنه... هذا الأصل وهذا المنهج يجعلان للتكافل الإجتماعى فى المجتمع المسلم قسمات خاصة ينفرد بها عن كل النظريات الاجتماعية التى ظهرت فى القديم وفى الحديث!!

ويؤكد لنا هذه النظريات كانت تنظر إلى التكافل الاجتماعى على أنه مجرد تنظيم للعلاقة التى تربط الفرد بالمجتمع، وتمنع طغيان أحدهما على الأخر، وتضع الأسس التى تضمن تَسَانُد المجتمع أفراداً وطبقات، وتتيح للجميع قدراً متكافئاً من الفرص والحقوق، وتلزم الجميع بقدر عادل من الواجبات...

● وهذه النظرة - كما نرى - تضع التكافل الاجتماعى - بعيدا عن الشعور الروحى منْحصراً فى مستوى قانونى ومصلحى بَحْت...!! بينما تؤكد لنا الحقائق الموضوعية والتجارب الإنسانية أن الإنسان - كفرد أو كأسرة أو كمجتمع صغير أو كبير - لايمكن أن يحافظ على كيانه الروحىّ والمادى بالقانون أو المصلحة وحدها...

● ومع هذا فإن التجارب الاجتماعية الحديثة قد سقطت فى هذا التصور حين غلّبت النزعة المادية عليها، فماتت فيها الروح الإنسانية، وذبلت القيم الدينية، وأصبحت الحياة حلبة سباق من أجل تحقيق مزيد من الترف والرفاهية والإستهلاك... ولولا قوانين

الضرائب الصارمة التى يفرضها القانون والشرطة لتعرضت هذه المجتمعات لانهيار كامل.

وفى المقابل نجد الدول الإسلامية (عبر التاريخ الاسلامى) قد تعرضت لنكسات كبيرة، وقد عجزت مؤسسات الدول فى كثير من الظروف عن توفير الحاجات الأساسية للمجتمع من غذاء وكساء ودواء وتعليم، فقامت الأمة المسلمة بدوافع الإيمان والعقيدة بسدّ الاحتياجات التى عجزت عنها مؤسسة الدولة..

ومن هذا المنطلق نشير الى الربط العضوى القائم بين مصطلحات (الأمة) و«المجتمع» و«التكافل الاجتماعى». وأخيراً يأتى مصطلح (الدولة) الذى يقوم بدور خطير، لكنَّ الأمة مع ذلك لايجوز لها أن تَيْأسَ ولا أن تترك التكافل الاجتماعى فى الحالات التى تعجز فيها الدولة عن القيام بهذا التكافل، أو الحالات الأخرى التى تتنكَّر فيها الدولة لرسالتها، وتخدم شرائح معينة، وتهمل الشرائح الاجتماعية الوسطى والضعيفة!!

- وانطلاقاً من هذا الإطار الذى يضع الإسلام فيه مصطلح «التكافل الاجتماعى» فى موقعه الصحيح نعالج المفهوم الاسلامى العلمى لهذا المصطلح.

مصطلح التكافل الاجتماعى فى الإسلام:

يقصد بمصطلح التكافل الاجتماعى تضامن أبناء المجتمع وتساندهم سواء كانوا أفراداً أو طوائف أو حكاماً أو محكومين، وذلك بدوافع

إيمانية نبيلة تهدف إلى غايات كريمة تنتهى إلى تحقيق الرعاية الاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية لجميع أبناء المجتمع وذلك بتوفير الاحتياجات الأساسية من مأكل ومشرب ودواء وكساء وتعليم.. بالإضافة إلى مقاومة كل من يحاولون خرق سفينة المجتمع كالمحترفين والمحتكرين والآكلين للأموال بالباطل بشتى الصور!!

وهذا التكافل الاجتماعى بهذا المفهوم الإسلامى تقرره الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التالية، قال تعالى:

﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ۚ ﴾(1)

وقال تعالى: ﴿ آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾(2)

وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ ﴾(3)

ويقول الرسول – صلى الله عليه وسلم ـ «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضه بعضاً»(4)، ويقول (ﷺ):

1- المائدة : 2
2- الحديد: 7
3- البقرة : 267
4- رواه البخارى ومسلم

«لا يؤمن أحدكم حتى يحبّ لأخيه مايحبّ لنفسه»[١] ويقول ـ صلى الله عليه وسلم ـ مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها، وكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مرّوا على من فوقهم فقالوا لو أنّا خرقنا فى نصيبنا خرقاً ولم نؤْذِ من فوقنا، فإنْ تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا علَى أيديهم نجوا ونجوا جميعاً»[٢]

ـ ولعل الحديث التالى أصرح فى الدلالة على التكافل الاجتماعى انطلاقاً من واقع عملى عاشه الرسول مع المسلمين، فقد روى مسلم وأبو داود أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: وكان فى حال سفر وشدة ـ «من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له. ومن كان له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له..» قال أبو سعيد الخدرى ـ راوى الحديث : فذكر من أصناف المال ماذكر حتى رأينا أنه لاحق لأحد منا فى فضل.

● بَيْدَ أننا نؤكد ـ مرة أخرى ـ على حقيقة شمولية التكافل الاجتماعى فى الإسلام للجوانب المادية والروحية لأنه فى النهاية يعنى شعور الجميع بمسئولية بعضهم عن بعض، وأن كل واحد منهم حامل لتبعات أخيه ومحمول على أخيه، يُسْأَلُ عن نفسه ويَسأل عن غيره[٣] ولهذا كان للتكافل شعبتان: شعبة مادية:

---

(١) أخرجه البخارى

(١) أخرجه البخارى

٢- الشيخ محمود شلتوت ـ الإسلام عقيدة وشريعة ص٤٤٤ ـ ط٣ - دار القلم - ١٩٦٦ مصر

وسبيلها مدّ يد المعونة فى حاجة المحتاج وإغاثة الملهوف، وتفريج كربة المكروب، وتأمين الخائف، وإشباع الجائع، والإسهام العملى فى إقامة المصالح العامة وقد أطلق الإسلام على هذا النوع من التعاون المادى عناوين مختلفة تشمل أنواعاً مختلفة من العلاج والتكافل مثل (الإحسان ـ الزكاة ـ الصدقة ـ الحق المعلوم ـ الانفاق فى سبيل الله ـ كفالة اليتيم ـ صلة الأرحام.. الخ) لكن هذه العناوين الدالة على أنواع من التكافل تتكامل كلها لتقدم نسيجاً من التكافل المادى فى الحياة الاجتماعية.

● أما الشعبة الثانية فهى الشعبة الأدبية: ونعنى بها تكافل المسلمين جميعا وتعاونهم المعنوى بالتعليم والنصح والارشاد والتوجيه.. أو بإيجاز: التعاون على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر قولا وفعلا.. والإسلام يجعل هذا التكافل الأدبى فريضة لازمة على كل مسلم، بل جاء على لسان الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه الدين كله بالنسبة لجميع الطبقات [1] «الدين النصيحة» قالوا: لمن يارسول الله؟ قال: «لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم..»

وهكذا يتضح لنا ـ بجلاء وتركيز شديدين ـ أن التكافل الاجتماعى فى الإسلام لايعنى مجرد المساعدات المالية ـ أيا كانت صورتها ـ كما تعنى كلمات مثل الضمان الإجتماعى او التأمين الاجتماعى.. بل يمتدّ المضمون الإسلامى للتكافل ليصبح نظاما لتربية روح الفرد

١- الشيخ محمود شلتوت ـ الإسلام عقيدة وشريعة ص٣٤٤ ـ ٣٤٥ - طبع مصر

وضميره وشخصيتّه وسلوكه الاجتماعى ـ ونظاما لتكوين الأسرة وأساليب تكافلها، ونظاماً للعلاقات الاجتماعية ـ بما فى ذلك العلاقات التى تربط الفرد بالدولة ـ وأن يكون فى النهاية نظاماً للمعاملات المالية، والعلاقات الاقتصادية التى تسود المجتمع الإسلامى [1].

أهمية التكافل المعنوى:

قد يتصوَّر بعضهم أن التكافل المعنوى والأدبى والأخلاقى والروحى أقل رتبة من التكافل المالى والاقتصادى.. بل قد يعتبرونه نوعاً من الهروب من الإطار الحقيقى للتكافل الاجتماعى المادى..

● ونحن لانوافقهم على رأيهم هذا.. بل إننا نرى أن التكافل المادى لاتتحقق أهدافه إلا بالوقوف فوق الأرضية المعنوية والأدبية.. ونرى أيضاً أن التكافل المعنوى هو الذى يضمن فعالية التكافل المادى.. فما معنى أن يتكافل المسلمون مادياً ـ فى بلاد الاغتراب [2] مثلاً ـ التى قد تُقدِّم فيها الدولة ألواناً من الضمان الاجتماعى المادى بينما يتْرك بعضهم بعضاً ينحدر فى عقيدته وعبادته وأخلاقه. بحيث يكاد يذوب فى القيم الانحلالية والمادية واللا أخلاقية التى تطرحها ـ فى الشارع والإعلام ـ المنظومة القيمية اللا دينية؟!!

١- من كتاب الدورة الثالثة حلقة الدراسات الاجتماعية للدول العربية ص٧٠٧ «نقلاً عن عبدالله ناصح علوان: التكافل الاجتماعى فى الاسلام ص٢١» نشر دار السلام مصر ط١٤٠٣:٤

٢- مثل بلاد أوربا وأمريكا واستراليا

ـ وهكذا فـإنه عـلى الرغم من أن الإسـلام قـد قـدم إطـاراً قـانونيـاً متكاملاً لتحقيق العدالـة الاجتماعية المادية ـ إلا أن الأساس المعنوى يقوم على مخاطبة الإنسان من داخله، وليس مجرد قيادته من ظاهرة وتحريك ضميره بدل سوقه بالقوة القاهرة، واستجاشة مشاعر الفطرة النبيلة بدل تحويل الحياة الى صـراع كئيب، والحـق أن الإسلام فى تشريعـه الاجتمـاعى قد اعتـمد هذا الأساس المعـنوى على نحوٍ لم تصل إليه أرقى النـظم التى ظهرت فى التاريخ، وقد أطلق على هَذا الأساس اسم «التكافل الاجتماعى» شاملاً المعنويات والماديات.

ـ ولئن كـانت بعض البلدان غـيـر الإسـلامية قـد بدأت تلجـأ إلى أسلوب التكافل الاجتماعى عن طريق مايسمى بـالجمعيات الخيرية ومؤسـسات البر والمسـتوصفـات والمستـشفيـات المجانية والضـمان الاجتمـاعى وحماية الضعـفاء ومإلى ذلك.. إذا كان الأمـر كذلك فليس ماتفعله هـذه الدول إلا تقليداً متأخراً منهـا لما جاء به الإسلام منذ أربعـة عشـر قرنـا، بعد أن طحنتـها الـقوانين الجـافة وأسـاليب الصراع الاجتماعى!!

● وفى هذا العـصر حـيث أصبح العـالم قرية إعـلاميـة أو أليكترونـية فيتعرض كل الناس لغـزوات ـ وهم فى بيوتهم ـ تريد أن تفرض عليهم قيم اللاّ دينية والمادية والانحلاليـة والذاتية والأنانية التى لا تأبه بالمصلحة الكبرى للدين أو للأمة أو للجماعـة.. فى هذا العصر ـ ولاسيما فى بلاد الأقليـات ـ يحتاج المسلمون إلى توظيف المسـاجد والمراكـز الإسلامـية والجمعيات الخيرية ـ توظيفـا معنوياً ودينياً يتكافلون من خلاله فى تحقيق

قوله تعالى: ﴿ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾[1]

وقوله تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾[2]

ربما بدرجة أكبر من تكافلهم فى الجوانب المادية التى يعدّ التكافل فيها أمراً منظماً ومتفقاً عليه، وتساعد عليه الدول مساعدة إيجابية فى بلاد الاغتراب، بينما تبقى الشخصية الإسلامية معرضة لأكبر الأخطار.. بل إنّ هذه الدولة تضع ـ أو بعضها على الأقل ـ خططاً محكمة لتذويب المسلمين فيها، وقد تصف كل من يتمسك بشخصيته بالتطرف والمبالغة، وتعتبر المسلم المتحرر ـ كما ذكر ممثل للجالية المسلمة فى فرنسا ـ هوالمسلم الذى يشرب الخمور ويتجاوز فى العلاقات الاجتماعية(!!).. وفى ضوء هذا فإن تكافل المسلمين المعنوى والفكرى والسلوكى فى بلاد الغربة أشدّ حاجة من التكافل المادى.. بل هو الطريق لبقاء الأواصر والعلاقات ـ بصفة عامة ـ بين المسلمين؛ فلن يكون ثمة التقاء تكافلى أو غير تكافلى حين يصبح بعض المسلمين شيوعيين وبعضهم علمانيين متحلّلين وبعضهم يعيشون لأنفسهم وشهواتهم وجمع ثرواتهم ولا يفكرون فى الآخرين ولايهتمون بأمر المسلمين.. ومن لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم..!!

● ومن هنا تتضح ضرورة التفكير فى تنمية مساحة التكافل المعنوى .. واستحداث صورا اجتماعية جديدة لها.

١- العصر : ٣

٢- المائدة : ٢

صور التكافل الاجتماعى فى الإسلام:

تتعدد صور التكافل الاجتماعى فى الإسلام، فتمتد إلى كل العلاقات الاجتماعية، لكننا نستطيع أن نوجز أهمها فى المظاهر التالية:

١ - التكافل الخلقى: ويقصد به إيجاد تعاون اجتماعى عام لإيجاد روح اجتماعية تنكر المنكر وتشيع المعروف،

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾(١)

فكل فرد فى المجتمع الإسلامى، وكل مسئول عن موقع ما، مهما اختلفت المستويات والطاقات، مسئول عن إشاعة المعروف وإزالة المنكر: «من رأى منكم منكراً فليغيّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان» (٢)

كما أن المجتمع أفراداً وحكومات ـ مسئول عن حماية دماء الناس وأعراضهم وأموالهم «كل المسلم على المسلم حرام. دمه وماله وعرضه» (٣) وذلك ليشيع الأمن والخير والحب فى المجتمع.

٢ - التكافل الذاتى ... أى رعاية الإنسان لنفسه، عن طريق تزكيتها بالإيمان والعمل الصالح ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾(٤)

١- آل عمران: ١٠٤

٢- رواه مسلم وأبو داود والنسائي

٣- رواه الشيخان

٤- الشمس: ٩، ١٠

والارتفاع بها والسير فى طريق النجا، ﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾[1]

٣- التكافل الأسرى.. أى رعاية الإنسان لأهله.. لوالديه وإخوته وزوجته وأولاده، وقد روى النسائى عن طارق المحاربى قال: «قدمت المدينة فإذا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قائم على المنبر يخطب الناس وهو يقول: يد المعطى العليا وابدأ بمن تعول : أمك وأباك فأختك وأخاك، ثم أدناك أدناك، ومن ذلك أيضاً قول الله تعالى: ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾[2]

٤ــ وهذا التكافل الأسري يمتد ليشمل كل ذوي الأرحام، وقد أعطي الإسلام ذوي القربي حقوقاً من حقهم أن يطالبوا بها قانونياً. قال تعالي: ﴿ وَءَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ ﴾[3]

«وقيمة هذا التكافل في محيط الأسرة أنه قوامها الذي يمسكها، والأسرة هي اللبنة الأولي وفي بناء المجتمع، وهي تقوم علي الميول الثابتة في الفطرة الإنسانية، وعلي عواطف الرحمة والمودة، ومقتضيات الضرورة والمصلحة»[4]

٥ ــ حق الجار والقرآن الكريم يقول في حق الجار :

---

(١) البقرة :١٩٥

(٢) البقرة : ٨٣

(٣) الإسراء: ٢٦

(٤) سيد قطب: العدالة الاجتماعية فى الإسلام ص٦٥ دار الشروق - مصر ٤٩٥ هـ

﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ ﴾[1]

وقال أبو ذرالفغار رضي الله عنه عن رسول الله ـ صلي الله عليه وسلم ـ «أوصاني خليلي ـ صلي الله عليه وسلم ـ إذا طبخت فأكثر المرق، ثم انظر بعض أهل البيت من جيرانك فاغرف لهم منها»[2]

«وليس الجار هو الملاحق كما يظن بعض الناس، فقد روي في الآثار أن أربعين داراً جار، وفسرها بعضهم بأربعين من كل جهة من الجهات الأربع، فأهل كل حي إذن جيران بعضهم لبعض قالت عائشة: قلت يا رسول الله! ان لي جارين، أحدهما مقبل عليّ ببابه والآخر ناء ببابه عني، وربما الذي كان عندي لا يسعهما، فأيهما أعظم حقاً؟ فقال المقبل عليك ببابه[3] فلإسلام يريد أن يجعل من الحي والشارع وحدة متكاملة متعاونة بحيث يمحون ضعفائهم، ويطعمون جائعهم، ويكسون عاريهم ، وإلابرئت منهم ذمة الله وذمة رسوله، ولم يستحقوا الانتماء إلي مجتمع المؤمنين» [4]

٦ـ وللفقراء والمعوزين حق في مال الأغنياء، الي أن يكتفوا، إذا لم تكفهم الزكاة المفروضة، ويقول الإمام أبو محمد علي بن حزم

(١) النساء ٣٦

(٢) رواه مسلم

(٣) انظر «مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام» للدكتور يوسف القرضاوى - ١٣

(٤) المصدر السابق

المتوفي سنة (٤٥٦ هـ) في موسوعته الفقهية «المحلي» عن ذلك: «وفرض علي الأغنياء من أهل كل بلد أن يقوموا بفقرائهم، ويجبرهم السلطان علي ذلك، إن لم تقم الزكاة بهم، ولا في سائر أموال المسلمين بهم، فيقام لهم بما يأكلون من القوت الذي لابدّ منه، ومن اللباس للشتاء والصيف بمثل ذلك، وبمسكن يكنهم من المطر والصيف والشمس وعيون المارة...»

وقال ابن حزم أيضاً: «ولا يحل لمسلم مضطر أن يأكل ميتة أو لحم خنزير وهو يجد طعاماً فيه فضل عن صاحبه لمسلم أولذمي لأنه فرض علي صاحب الطعام إطعام الجائع، فإذا كان ذلك كذلك فيلس بمضطر إلي الميتة ولا إلي لحم الخنزير، وله أن يقاتل عن ذلك، فإن قتل المانع فالي لعنة الله، لأنه منع حقاً وهو طائفة باغية» [(١)]

٧ـ كفالة أهل الذمة، ففي المجتمع الإسلامي يمتد التكافل ليشمل المنضويين تحت مظلة المجتمع الإسلامي، وقد منح الإسلام ــ أهل الذمة ــ من أهل البلدان التي فتحها المسلمون حقوقاً تمنحهم الأمان والاطمئنان علي معتقداتهم، اذا شاء والبقاء عليها، ما لم يقفوا في وجه الإسلام بطريق أو باخر. وفي سلوك الرسول ــ عليه الصلاة والسلام ــ في المدينة مع اليهود.. وسلوك المسلمين بعد ذلك علي امتداد التاريخ ما يؤكد سمو المعاملة التي عومل بها هؤلاء. ونحن نجد في كتب «النظم الإسلامية» مثل «كتاب الأموال» لأبي عبيد القاسم ابن سلام و«كتاب الخراج» لأبي يوسف، و«كتاب الخراج» لقدامة ابن جعفر، وكتاب «الأحكام السلطانية» لأبي الحسن

---

(١) المحلى ج ٦ كتاب الزكاة مسزلة ٧٢٥

الماوردي [1] ـ نجد في هذه الكتب وغيرها تفاصيل المعاملة النادرة السامية التي عومل بها هؤلاء الذميون.
ولعل من أكبر صور السمّو في المعاملة تلك الكفالة الاجتماعية التي ضمنها المجتمع الإسلامي لهؤلاء في حالات عجزهم وضعفهم، وقصة عمر بن الخطاب مع اليهودي وفرضه له مالاً ـ راتباً ـ من بيت مال المسلمين أكبر دليل علي ذلك.
٨ ـ حق الأطفال والأبناء فكما للوالدين حقوق فإن للأبناء حقوقاً أيضاً.
● وتؤخذ نفقة الأطفال والأبناء ووجوبها الشرعي علي الأب من عموم قول الرسول ـ صلي الله عليه وسلم ـ لهند بنت عتبة: «خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف».
كما يؤخذ ذلك أيضاً من قول الله تعالي:

﴿ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ ﴾[2]

وتفيدنا هذه الآية الكريمة أنه إذا مات الوالد فإن نفقة الأطفال اللذين يتركهم تعود إلي ورثة هذا الفقيد، وحتي لو لم يترك الوالد الميت شيئاً، فإنهم يلزمون بالإنفاق علي أطفاله القاصرين حسب ميراثهم الذي كان من الممكن أن يأخذوه لو ترك شيئاً. أفيأخذون أمواله

(١) د.حسين مؤنس. عالم الإسلام ص ٢٩٥ طبع مصر
(٢) البقرة: ٢٣٣

وعقاراته في حال الغني. ولا يكلفونه في تبعاته في حال الفقر؟ ان هذا لا يجوز في لغة العقل ولا في لغة العدل. وقد وقف الإمام ابن حزم ــ رحمه الله ــ في وجه من خالفوا هذا الرأي، وردّ أقوالهم واستشهد لقوله الذي ذهب إليه بما فعله ابن مسعود حين جعل نفقة الصبي من ماله وقال لوارثه: أما انه لو لم يكن له مال لأخذناك بنفقته.

كما استشهد بقول الحسن البصري: نفقة الصبي إذا لم يكن له مال علي وارثه. وفسر الحسن البصري قوله تعالي: «وعلي الوارث مثل ذلك» بالنفقة، ويقول ابن جريج: قلت لعطاء: أيجبر وارث الصبي ــ وان كره ــ بأجر مرضعته اذا لم يكن للصبي مال؟ قال: أفندعه يموت؟ وهكذا ينشأ الطفل في الإسلام محفوظاً برعاية كاملة من أبيه أو وارثه اورحمه، وتكفل أمه وحاضنته حماية له وكذلك مرضعته ــ وعلي الدولة المسلمة ــ أو الأمة في حالة عدم وجود دولة ــ بعد ذلك ــ مساعدة الأسرة علي حماية الطفولة وتوفير متطلباتها، وقد كان عمر رضي الله عنه يمنح كل رضيع معاشاً دورياً ثابتاً في حدود الكفالة الصحيحة والعدل الصحيح.

وعلي المجتمع المسلم ــ دولة أو أكثرية أو أقلية ــ أن يقوم بهذا الدور بالنسبة لجموع أطفال المسلمين وأبنائهم.. هذا في الناحية المادية والعضوية.. أما في الناحية المعنوية، والأدبية المتصلة بالعقيدة والقيم. فمن واجب المسلمين التكافل والتعاون علي تنشئة الأبناء تنشئة إسلامية عن طريق إنشاء المحاضن ذات المنهج الإسلامي والأهداف الإسلامية، ويتأكد هذا في عالم الأقليات

الإسـلامية لوجود ضـغوط استلابيـة تحاول صناعـة الأبناء وفق منظومة القيم اللا إسلامية.
ومن المعـروف ان المدارس الأجـنبـيـة الخـاضـعـة لـلدول الأوربيـة وثقافتها، والهـيئات التبشيرية تقدم صياغـة علمانية للحياة لا تخلوا من مسـحة تنصيرية، وقـد ساعد علي نجاح هذه المدارس مـا تمتاز به من وسـائل النظام والنظـافة وأسـاليب التـربيـة الحـديثـة ووسـائل الإيضاح وتعليم اللغـات، ونتيجـة هذا فقد أصـبحت هذه المدارس في كثـير من البلدان العربيـة والإسلاميـة المقصد الذي يقـصده كل القادرين علـي دفع نفقات التـعليم فيـها، أو الذين يتـاح لهم ادخال ابنائهم فيها بصورة أو بأخري.
وقد أتيح لي شـخصيـاً أن أعمل في واحدة من أشـهر هذه المدارس خلال الستينات ــ ولم تتحمل هذه المدرسة اتجاهي الإسلامى لأكثر من عام واحـد، وذلك لأن برنامجـها التنصري لم يكن يـخفي علي فاستعملت الحكمـة في الحفاظ علي الشخصية والعقـيدة الإسلامية لكن هذه الحكمـة لم تكن لتخـفي عليهم، فـهم أكثر النـاس حكمة ودهاء في الوصول إلي أغراضهم التبشيرية!!
وفي ضوء هذه المفسدة المظنونة ــ علي الأقل ــ إن لـم تكن محققة في هؤلاء الأبناء الصـغـار الذين لاحضـانة لديهم فـإن من السـهل التعرف علي الحكم الشرعي من خلال قاعدتين أصوليتين:
ــ قاعدة درء المفاسد مقدم علي جلب المصالح.
ــ قاعـدة سدّ الذرائع، وأن ما يؤدي الي الحـرام حرام. فكيف وهذا الحرام يمسّ عقيدة المسلم نفسه.

٩ ـــ رعـاية اللقيط.. واللقـيط إنسـان ولد لا يعرف والده ولا أمـه، ومن حـقه أن يلـتقطه الناس من الـشوارع ويأثمـون إن لم يلتـقطوه وتركوه يهلك، تقديراً من الإسلام لحق الحياة:

﴿ وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾(١)

ومن واجب الأمة المسـلمة ــ دولة كانت أو أقليـة أو جمـاعة مهـما صغرت - أن ترعى هذا اللقـيط وتعمل على تنشئته تنشئـة إسلامية سوية وتعلمه مهنة يرتزق منهـا، وليس كل لقيط من زنا، فقد يكون أبواه قد مـاتا فى ظروف غامضـة، أوافتراقـا، أوافتقرا فـقراً مدقـعاً، ويتولى من يشاء رعاية اللقيط بشرط أن يكون مسلماً، عاقلاً، بالغاً، حراً، قـوياً، خبـيراً بشـؤون التربيـة، وعدلاً. وفى كـتب الفقـه باب مسـتقبل عن (اللقـيط) يتناول كـافة حـقوقـه الإنسانيـة وواجبـات المجتـمع نحوه وحـتى لو كبـر وارتكب خطأ يوجب غـرماً مـالياً لا يسـتطيع دفعـه ووجب على الإمام أن يتـولاه عنه، وإذا ادعى نسب اللقيط رجل أو امرأة حكم لهمـا به، وإذا حدث تنازع عليه من أكثر من رجل أو امرأة اسـتعـملت طرق الإثبات المخـتلفة، كـأساس لمن تنطبق عليه الشروط.

١٠ - كفالة اليتيم: واليتيم من مات أبوه وتركه صغيراً ضعيفاً يحتاج إلى من يكفله، وقد حث الإسلام على إكرام اليتيم فقال تعالى:

﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾(٢) وقـال : ﴿ كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴾(٣)

(١) المائدة: ٣٢ (٢) الضحى: ٩
(٣) الفجر: ١٧

وقال: ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴾[1]

وقال: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾[2]

وقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾[3]

وفى الحديث الشريف أنه عليه الصلاة والسلام قال: «أنا وكافل اليتيم فى الجنة كهاتين» وأشار بإصبعيه - يعنى السبابة والوسطى. وهذا يوجب على المسلمين استحداث آليات وصور تطبيقية فى محيطهم الإسلامى، ولاسيما فى بلاد الاغتراب لرعاية اليتامى حتى لا يلتقطه أعداء الإسلام، فعليهم افتتاح الدور لرعاية الأيتام تحت إشراف المراكز والمؤسسات الإسلامية والجمعيات الخيرية والقائمين على شؤون المساجد.

١١ - كفالة أصحاب العاهات والشيوخ والعجزة والمنكوبين:

وكفالة هؤلاء تدخل فى نطاق قوله تعالى:

﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾[4]

---

(١) الماعون: ١، ٢

(٢) الأنعام: ١٥٢

(٣) النساء: ١٠

(٤) المائدة: ٢

وقوله تعالى أيضاً:

﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾(١)

وفى نطاق قوله - عليه الصلاة والسلام - «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه، من كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته، ومن فرجَّ عن مسلم كربة فرّج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة» (٢)

● وأصحاب العاهات هم الذين فقدوا عضواً من أعضائهم أو خرجوا إلى الحياة ببنية هزيلة وذلك مثل العميان، والصرعى، والمعتوهين، وأصحاب العيوب الكلامية، والأمراض المزمنة، وأمراض الشيخوخة. (٣)

وقد جاء فى كتاب خالد بن الوليد إلى أهل الحيرة ما نصه:

«وجعلت لهم أيّما شيخ ضعيف عن العمل أو أصابته آفة من الآفات أو كان غنياً فافتقر، وصار أهل دينه يتصدقون عليه طرحت جزْيته، وعيل من بيت المال وعياله ما أقام بدار الهجرة ودار الإسلام» (٤)

ورعاية هذه الشرائح تقتضى إقامة الدور الصالحة لإقامتهم وتغذيتهم والإشراف عليهم، فإذا كانوا يقيمون مع أهلهم فإنَّ دور

---

(١) آل عمران: ١٣٤

(٢) متفق عليه

(٣) انظر: عبدالله علوان - التكافل الاجتماعى فى الإسلام ص٦٣ وما بعدها

(٤) من كتاب الخراج لأبى يوسف ص١٤٤

رعايتهم تقوم بتعليمهم العلوم النافعة والمهن المناسبة. أما الشيوخ والمنكوبون فينبغى أن يلقوا الرعاية المعنوية والمادية المناسبة، لأنه لا يصلح فى الإسلام أن يعيش المسلم لنفسه وأولاده وأرحامه تاركاً مساحة الحياة الاجتماعية لا يتعاطف معها ولايهتم بأمرها لأن مثل هذا المسلك يتعارض مع قوله عليه الصلاة والسلام: «ترى المؤمنين فى تراحمهم وتعاطفهم وتوادهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» [1]

١٢- رعاية الشواذ والمنحرفين والمطلقات والأرامل:

هذه الصور من الشذوذ على قاعدة الحياة السوية - وربما غيرها - سواء كانت ناشئة عن عيوب اجتماعية وأخلاقية أم ناشئة عن خلل فى الحياة الأسرية أو العلاقة الزوجية، وسواء تعلقت بالرجل أو بالمرأة أو كانت بتأثير العوامل الداخلية كسوء التربية المنزلية وإهمال الوالدين للأبناء أو بتأثير العوامل الخارجية كرفقاء السوء أومشاهدة الأفلام التى تحث ّعلى الجنس أو الجريمة...

كل هذه الحالات يجب على المجتمع المسلم - مهما كان صغيراً أو فقيراً - أن يتكاتف فى سبيل علاجها ورعاية أصحابها دينياً وتربوياً، وأخلاقياً، ومادياًونفسياً... وفى هذه الحالات لابد أن تتعانق صور العلاج النفسى والروحى مع الرعاية المادية والاجتماعية ولابد من تهيئة المناخ الإسلامى المناسب وتيسير السبل للأعمال والنشاطات النافعة الحلال التى تمثل البديل للمناخ غير الصالح الذى كان من أسباب معاناة هؤلاء، وربما كان من عوامل

(١) رواه البخارى في الأدب المفرد

التكافل الاجتماعى تيسير السبل للزواج أيضاً وللالتحاق بدروس المساجد وبدور العلم المناسبة لإمكانات هؤلاء وثقافتهم وقدراتهم الفكرية.

نظام المواريث والتكافل الاجتماعى:

بعض الذين عالجوا نظام المواريث فى الإسلام كانوا خاضعين لشعارات فوضوية من هذه الشعارات التى تخدع العقول وتهدم العواطف، لكنها - عند التحليل العلمى - بعيدة عن الحق والصواب والرؤية الاجتماعية الشاملة التى تنظر إلى الأسرة كبناء متكامل وإلى المجتمع فى النهاية كوحدة متماسكة متعاونة.

● وإذا نظرنا إلى كل أسرة طبيعية فإننا نجدها تتكون من رجل وامرأة، فإذا كان ميراث الرجل ضعف المرأة فإن كل بيت فى النهاية سيتّكون من ثلاثة أنصبة (٢الذكر+١للأنثى) والسّر التشريعى الحكيم وراء هذا هو الحفاظ على التكافل الاجتماعى؛ إذ يبقى الأخ (الزوج لامرأة أجنبية) مرتبطاً بإخونه وأرحامه شاعراً بمسئولية نحوهم، وتبقى الأخت (الزوجة لرجل أجنبى) شاعرة بإنتماء لإخوتها وأرحامها من زاوية مسئوليتهم نحوها تجاه ما أخذوه من فأرق فى الميراث يمثل ضماناً اجتماعياً لها عندهم فى حالات موت زوجها أو ضياع مالها !!..

وهذا نموذج نقدِّمه لبيان روح التكافل الأجتماعى الذى يتخلّل نظام المواريث فى الاسلام، فلم يجعل الإسلام المواريث قواعد رياضية جافّة تقطع كل الوشائج والأرحام.. ونحن نلمس هذه الروح من خلال بصرنا الحكيم فى آيات المواريث

نفسها، يقول الله تعالى:

﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوْلَٰدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾ ۞ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ

﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ ۚ فَإِن كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ ۚ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[1]

● وعند الفحص الدقيق لآيات المواريث نجدها مصبوغة بصبغة الله اللطيف الخبير الذى يصنع القوانين دائماً فى إطار من الحبّ والتكافل والرحمة، وقد يجبر النواحى القانونية بأوامر أخلاقية وشرعية لاتقلّ قوة عن النواحى المادية، فللو الدين فى الإسلام بعامة وللأممّ بخاصة حقوق تسمو على كل الحقوق المادية، وكأنها تجعل

(١) النساء من ٩:١٤

الولد وما يملك لوالديه، ولم يأمر الاسلام بالذلّ إلا مع الوالدين:

﴿ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ ﴾(١)

ومن الزاوية المادية البحتة التى يركز عليها بعضهم- ترد حالة الأم- بصور ميراثها المختلف كوارثة- وحالة الإخوة لأم بصور ميراثها المختلفة، مساوية مادياً للرجل، أو متفوقة عليه معنوياً ومساوية له مادياً فى بعض الحالات، وفى هذا الدلالة العظمى على عدل الشرع الحكيم، وعلى تقديره لعلاقة الأمومة، وعلى أن هذا الشرع الحكيم لا يجامل الرجل على حساب المرأة، وكذلك لا يجامل المرأة على حساب الرجل، ولا يحابى طبقة على حساب طبقة أخرى.. بل يعطى كل ذى حق حقه فى ضوء المصالح العامة، والظروف الخاصة، والواجبات الملقاة، والحاجات الملحة!!

التكافل الاجتماعى والأخوة الإسلامية.

-إذا كان التأمين الاجتماعى أمراً تتولاه الدولة والمؤسسات الخاصة، ويتطلب مساهمة المستفيد بإشتراكات يؤديها حتى تمنح له مزايا التأمين الاجتماعى متى توافرت فيه شروط استحقاقها..،وإذا كان الضمان الاجتماعى يقصد به التزام الدولة نحو مواطنيها، وهو لا يتطلب تحصيل اشتراكات مقدماً، وتلتزم الدولة بتقديم المساعدة للمحتاجين فى الحالات الموجبة لتقديمها كمرض أو عجز أو شيخوخة، متى لم يكن لهم دخل أو مورد رزق يوفر لهم حد الكفاية (٢)

(١) الاسراء: ٢٤

(١) د. محمد شوقى العنبرى : الاسلام والضمان الاجتماعى ص٣٠،٣١ط٣ ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٠

إذا كان هذا هو مفهوم التأمين الاجتماعى والضمان الاجتماعى فإن التكافل الاجتماعى قد حققه الاسلام بين أفراد الأمة جميعاً من خلال شبكة من الالتزامات والقيم الشرعية والأخلاقية .
-وتأتى (الاخوّة الإسلامية) أساساً تقوم عليه كل صور التكافل والتراحم بين المسلمين، وهى تجسيد لقوله تعالى فى وصف المؤمنين: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[1]

﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾[2]

فعندما هاجر الرسول عليه الصلاة والسلام إلى المدينة كانت المؤاخاة بين المسلمين من أولى الركائز التى اعتمد عليها فى بنائه لمجتمع المسلمين، وقال لأصحابه من المهاجرين والأنصار «تآخوا فى الله أخوين أخوين»
فكان هذا التآخى- بما انبثق عنه من ترابط وتكافل اجتماعى وإيثار نادر فى تاريخ البشرية كله.. كان هذا التآخى «تجربة رائدة» فى تاريخ العدل الاجتماعى ضرب فيه الرسول عليه الصلاة والسلام مثلاً على مرونة الإسلام وانفتاحه فى الظرف المناسب على أشدّ صور العلاقات الاجتماعية مساواة وعدلاً[3] وقد بلغ من تأكيد الرسول عليه الصلاة والسلام على المؤاخاة أن كان ميراث الأنصارىّ يؤول بعد وفاته لأخيه المهاجر بدلاً من ذوى رحمه من

---

(١) الحجرات: ١٠
(٢) الفتح: ٢٩
(٣) د. عماد الدين خليل / دراسة فى السيرة ص ١٥٢

الأخوة أو الأبناء والنساء واستمر الحال على ذلك حتى موقعة بدر التى حظى فيها المسلمون بمقادير لابأس بها من الغنائم والأموال، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾(١) فعاد التوارث سيرته الأولى (٢)

-ولانظن مجتمعاً من هذه المجتمعات التى تتشدق بالعدالة الاجتماعية تحت شعارات الاشتراكية أوغيرها- تحلم بالوصول إلى شىء من هذه الصور التى صورها القرآن أصدق تصوير بقوله تعالى:

﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾(٣)

إن الأخوة بين المسلمين من أعظم المبادىء التى ارتكز عليها التكافل الاجتماعى فى الإسلام، بَيْدَ أن هذه الأخوة التى تجسدت عملياً فى المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار كأول صورة تطبيقية لها.. هذه الأخوة للأسف الشديد لم تَحْظ من المؤرخين بالاهتمام الكافى، مع أنها من أبرز االظواهر التى تُخْرِسُ الدعاة المزيفين للعدالة الاشتراكية فى العصر الحديث وتكشف بجلاء عن مدى عظمة النظرة الإسلامية لعلاج المسألة الاجتماعية.

-وجدير بالتنوية هنا أن هذه الأخوة ممتدة بين المسلمين إلى يوم

(١) الأنفال : ٧٥
(٢) د. عماد الدين خليل/دراسة فى السيرة ص ١٥٢
(٣) الحشر : ٩

القيامة. ولئن كانت قد توقفت كأساس للتوريث، فإنها لم تتوقف كمبدأ إنسانى اجتماعى أساسي فى حياة الجماعة الإسلامية، لأن محمداً عليه الصلاة والسلام لم يقرّرها لمجرد إيجاد وسيلة لمعاونة المهاجرين المحتاجين، وإنما قررها ليؤكد للجماعة الإسلامية مبدأ الأخوة فى العقيدة والهدف والمثل الأعلى بين أهل الجماعة الواحدة.

ولو أن كل جماعة إسلامية حرصت على تطبيق مبدأ المؤاخاة وربط أفرادها اثنين اثنين بروابط أخوة قلبية وإنسانية مثالية- لكان لذلك أثره البعيد فى تطور العلاقات الإنسانية فى داخل الجماعات الاسلامية، ولكانت هذه الروابط الروحية بين الناس قد أصبحت عوامل قوة دائمة تعين الجماعة الاسلامية علي الشباب والسيرالى الامام[1] فضلا عن حفظها لكيان المجتمع كأقوى ما يكون ترابطا وتعاوناً وحباً.. ولاسيما فى بلاد الغربة، حيث يكون المسلمون أقلية.

إن الاخوة الاسلامية - بتركيز شديد هى التطبيق العقدى والشرعي والاخلاقي للتكافل الاجتماعى الاسلامى العام، وهي- فرض كفاية- علي الجميع - وفرض عين- علي الأقربين مكاناً ورحماًوصلة بالمحتاجين... يقول صاحب كشاف القناع: «دفع الضرر عن المسلمين من فروض الكفاية، وهى ما قصد حصولها من غير شخص معين، فإن لم يوجد إلا واحد، تعين عليه كستر

(١) د.حسين مؤنس - عالم الإسلام ص١٣٩ دار المعارف - مصر

العارى، وإشباع الجائع، وفك الاسرى علي القادرين من المسلمين، إن عجز بيت المال عن ذلك، أوتعذر الأخذ منه»[1]

وعلي اساس هذه الأخوة الاسلامية التي تتأرجع بين فرض الكفاية والعين انطلق المجتمع الاسلامي وتجاوز كثيراً من العقبات المعنوية والمادية! وبدون عودة هذه الاخوة- علي هذا النحو الايجابي الفاعل الذي يتجاوز الحواجز العرقية والوطنية والاجتماعية- لن تقوم للمسلمين قائمة، ولاسيما حين يكونون أقليات. سواء كانوا أقلية كبيرة مثل الاقلية الاسلامية فى الهند، أو اقليات صغيرة كتلك الاقليات المنتشرة فى أوربا وأمريكا وإفريقيا وغيرها... ففي كل الحالات لن تستطيع الاقليات الاسلامية ان تواجة الضغوط الاجتماعية والثقافية المضاءة للهوية الاسلامية إلابالمناخ الذى تحققه الاخوة الاسلامية التي وفرت شروط الانطلاق والسيادة للمجتمع الاسلامي الاول وسط ظروف أعتي من الظروف التي تحيط بالاقليات الاسلامية اليوم... وما زالت قادرة على قيادة المسلمين اليوم ... أكثريات وأقليات التكافل الاجتماعي... وروح الاسلام. علي طبيعة هذا الدين التي لاتقف عند التشريعات والتوجيهات، بل دائما تقف من خلف التشريعات والتوجيهات روح واضحة قوية لايملك الانسان نفسة من التأثر بها والاستغراق في جوها... هذه الروح هي التى ترسم الأفق الأعلى الذى يتطلب الاسلام من معتنقية ان يتطلعوا إليه، وأن يحاولوا بلوغة، ليس بتنفيذ النرائض

(١) كشاف القناع ج١ - ص٦٥١ - وانظر د.محمد الصادق عفيفى: المجتمع الإسلامى وحقوق الإنسان ص٩١ سلسلة دعوة الحق: مكة المكرمة ١٤٠٧ هـ

والتكاليف فحسب، بل بالتطوع الذاتى لما هو فوق الفرائض والتكاليف.. وهذا الأفق عسير المرتقي، والأعسر منه الثبات عليه! لان نوازع الحياة البشرية، وضغط الضرورات الإنسانية، لايطوعان للأكثرين من الناس ان يرتقوا لهذا الأفق العالي، ولاان يصبروا عليه طويلاً، إن ارتقوا إليه في فورة من فورات الشوق والتطلع، فلهذا الأفق تكاليفة العسيرة، وهي تكاليف فى النفس والمال وفي الشعور والسلوك [1]

- ولقد كان لتلك الروح التي أشرنا إليها أثر فى واقع الإسلامي التاريخى، فاستحال الإسلام - وهو عقيدة وفكر - إلى شخصيات ووقائع ولم يعد نظريات مجردة، ولامجموعة إرشادات ومواعظ، ولامثلاً وأخيلة، إنما عاد نماذج إنسانية تعيش، ووقائع عملية تتحقق، وسلوكاً وتصرفات تشاهد بالعين، وتسمع بالأذن، وتترك اثارها في واقع الحياة، وفي أطوار التاريخ، فكأنما كان روحاً يتلبس بهذه الشخوص فيحولها، ويصوغها صياغة جديدة وينشئها نشأة أخرى

- وهذه التي يسميها هذا الكتاب- روح الاسلام، هى في رأينا مزيج من الحب والرحمة يعالج به المسلم القضايا التشريعية وهذا المزيج يجعل المسلم يحاول السمو إلى أفضل الصور عند تطبيقة للشريعة، وهذا المزيج يجعل المسلم- أيضا- يجاهد في سبيل الوصول إلي ما يمكن ان نسمية الأفق المثالي للتطبيق...

- ولقد تكون هذا المزيج أو هذه الروح بتأثير الروح القرانية العامة

---

(١) سيد قطب: العدالة الاجتماعية فى الإسلام ص ١٦٣ دار الشروق القاهرة ١٣٩٥ هـ

التى تحث المسلمين على الحب والإثاروالتضحية واللين، والتي تجسدت في أقوال الرسول وأفعالة أيضا وراها المسلمون قزاناً يمشي علي الارض، فحاولوا ان يقلدوها لان الوحي أمرهم ان يكون لهم في رسول الله أسوة حسنة...

يقول الله تعالي: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾(١)

ويقول تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾(٢)

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾(٣)

ويقول: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾(٤)

ويقول: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾(٥)

---

(١) النحل: ٨٩
(٢) الأسراء: ٨٢
(٣) الأعراف ١٥٧
(٤) النساء: ٢٨
(٥) البقرة: ١٨٥

وعن أنس بن مـالك رضي الله عـنه ان رسول الـله صلي الله عليـه وسلم- قال: «يسرواولاتعسروا ، وبشروا ولاتنفروا»[١].

- لقد تمـيز الإسلام بالمـزج الشديد بين العـدل والحب والرحمـة، فإذا كانت الزكاة «عدلاً» فإن المجتمع لايستغني عن الحب والرحمة، فليس بالزكاة وحـدها مهـما بلغ سـموها تقـوم الحياة الماديـة بل في الأموال حقوق غير الزكاة. وليس بالحق أو العدل وحده تقوم الحياة الإنسانية، بل لابد معـهما من الحب والرحمـة اللذين يرتفع بهما الإنسـان فوق القوانين، ليقترب من روح القـوانين، وفوق العدل ليكون إنساناً ربانياً رحيماً جديراً برحمة الله، وجديراً بأن يكون تلميذاً وتابعاً لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - الذى قال الله له:

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾[٢]

وقال: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[٣]

وقد نجح الصحابة والتابعون وكـثيرون فى التاريخ الإسلامى فى أن يكونوا نماذج حية لهذه الروح الإسلامية العالمية..

● فهـذا أبو بكر - رضى الله عنه - كان له يوم أسـلم أربعون ألف درهم مـدَّخرة من ربح تجـارته، وقـد ربح الكثيـر من التـجارة بعـد

(١) متفق عليه (٢) آل عمران : ١٥٩
(٣) التوبة : ١٢٨

إسلامه، فلما هاجر إلى المدينة مع صاحبه - صلى الله عليه وسلم - لم يكن قد بقى له من كل مدّخرة سوى خمسة آلاف درهم لقد أنفق ماله المدّخر فى افتداء الضعفاء من الموالى المسلمين الذين كانوا يذوقون العذاب ألوانا من سادتهم الكفار، كما أنفقه فى برّ الفقراء والمعوزين.

●وهذا عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - وإنه لرجل فقير - يصيب أرضا بخيبر فيجىء رسول الله - صلى الله عليه وسلم فيقول أصبت أرضا بخيبر لم أصب مالا قط أنفس عندى منه. فما تأمر به؟ فيجيبه الرسول - صلى الله عليه وسلم -: «إن شئت حبست أصلها وتصدقت بها» فيجعلها عمر وقفاً على الفقراء وأولى القربى وفى الرقاب وفى سبيل الله والضعيف، لا جناح على من وليها أن يأكل منها بالمعروف، ويطعم صديقاً غير متمول فيها. ويخرج بذلك من أعزّ ماله تصديقاً لقول الله:

﴿ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾[1]

● وهذا عثمان - رضى الله عنه - قبل الخلافة ترد عير له من الشام فى وقت نزل فيه البرح بالمسلمين من الجدب، فإذا هى ألف بعير موسوقة براً وزيتاً وزبيباً، فيجيئه التجار يقولون: بعنا من هذا الذى وصل إليك، فإنك تعلم ضرورة الناس.. فيقول: حبّاً وكرامة كم تربحونى على شرائى؟ فيجيبون: الدرهم درهمين فيقول: أعطيت أكثر من هذا فيقولون: يا أبا عمرو! ما بقى فى المدينة تجار غيرنا،

(١) آل عمران : ٩٢

وماسبقنا إليك أحد، فمن الذى أعطاك؟ فيجيب: إن الله أعطانى بكل درهم عشرة، أعندكم زيادة؟ فيقولون: لا فيشهد الله على أن هذه العير وما حملت صدقة لله على المساكين والفقراء من المسلمين.

- وهذا على - رضى الله عنه - وأهل بيته يتصدقون بثلاثة أرغفة من سويق كانت لهم، على مسكين ويتيم وأسير، ثم يبيتون على الطوى، وقد شبع المسكين واليتيم والأسير[1].

● ولم تكن الرحمة الإسلامية للمسلمين فقط، فالمبادىء لا تتجزأ، والمنهج الإسلامى يعتمد العدل المطلق والرحمة المطلقة اللهم إلا إذا فرض عليه أن يكون قويا شديدا كما هو الحال فى حالات الحروب التى اخترعت لها البشرية صورا من الظلم الاجتماعى والابادة الجماعية التى لا تعرف الرحمة ولا العدل.

● أما الإسلام فحتى فى هذه الحالة الاستثنائية التى توجب الأخذ بكل ألوان الشدة وإلا فقد الإنسان دينه الذى يدافع عنه وأرضه التى يدافع عنها وحياته الشخصية.. لكن الإسلام حتى فى هذه الحالة - بكل ملابساتها - التزم العدل والرحمة، فاستثنى غير المحاربين، ووضع آدابا للحرب، ونهى عن الغدر والاغتيال والتعذيب، ونهى عن قتل المرأة والصبى والشيخ الهرم والعجزة والمنقطعين للعبادة - مهما كان دينهم - والمنقطعين للعلم والطبقات المدنية غير المحاربة، كما أنه لم يسمح بقتل الأطباء والممرضين.. وقد أوصى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المجاهدين بقوله: لاتقتلوا شيخاً فانياً ولا

(١) العدالة الاجتماعية فى الاسلام ص ١٩٧،١٩٨

طفلاً ولا امـرأة ولا تغلوا وضموا غنائمكم وأصلحـوا وأحسنوا ان الله يحب المحسنين ويقول عليه الصـلاة والسلام لخالد بن الوليد لا تقتل ذرية ولا عـسيفا - أى عـاملا - وأوصى أبو بكر - رضى الله عنه - أسامـة ابن زيد - رضى الله عنهمـا - حينما بعـثه إلى الروم بقـوله لا تخونوا، ولا تعـقوا نـخلا ولاتحـرقوه ولا تقطعـوا شجـرة مثمرة، ولا تذبحوا بقوة ولاشـاة ولا بعيرا، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له[1]!!

* فالرحمة نسـيج التعاليم الإسلامية كلها، لكنها الرحـمة الايجابية وليست الرحمة الـعاجزة السلبية، كما أنه الحب الحـقيقى الذى يراه الناس ويعـــملون به ديناً وأخــلاقـاً، وليس الحب الـنظرى الذى لا رصيد له فى الواقع، والذى يلوك كلمة (المحـبة!!) وهو يتآمر على العـالم، ويكيـل بكيلين ويعـمل لذاته، ويـفـرض على الضـعـفـاء الاتفاقـيات التى تحفظ عليهم فـقرهم وضعـفـم، وتزيد الغنى القوى شراسة وترفاً.

التكافل الاجتماعى وأساسيات الحياة:

كـفل الإسلام بتـعـاليـمه لكل الناس الذى يـعيـشـون فى المجتـمع الإسلامى مـسلمين كـانوا أو غيـر مسلمـين - أساسـيات الحـياة.. وتعـاليـم الإسـلام ذات طابع إنسـانى عـام يتـصل بتـقديـر القيـمـة الإنسـانية نـفسـها.. بـل وحتى الحـيـوانات والطيور حـثت تعـاليم

(١) انظر عبد الله غوشة : الدولة الاسلامية دولة انسانية ص٧٨ طبع عمان ١٣٩١هـ

الإسلام على الرحمة بها وتوفير حقوق الحياة لها والاحسان إليها، فكيف بالإنسان؟!!

ومن هذه الأساسيات التى ضمنها الإسلام:

١- أمن السرب[١].. ويتمثل هذا اللون فى حماية: الدم والعرض والمال،

قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى حجة الوداع: «ألا إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم، كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا...» ومن ثم فقد ظل الإسلام بحمايته ورعايته هذه القضايا الثلاث وأمر بالضرب على أيدى المعتدين، وفرض عليهم عقوبات رادعة وأقام حدودا لأى عدوان، أو ارتكاب جريمة، من سفك دم ، أو قتل نفس حرم الله قتلها إلا بالحق، أو سرقة أو اغتصاب، أو قطع طريق أو زنى بامرأة... وليست الشدة «المزعومة» فى الحدود الإسلامية إلا تقديرا من الإسلام لحقوق الحياة الاساسية، وضربا على أيدى العابثين بها المعتدين عليها.

٢- أمن الصحة: ويتمثل فى الحفاظ على صحة المجتمع باعتبارها وحدة واحدة لا تتجزأ قال عليه الصلاة والسلام: «لا يوردن ممرض على مصح»[٢]

وقال: «إذا سمعتم الطاعون بأرض قوم فلاتدخلوها، وإذا وقع وأنتم بها فلا تخرجوا منها»[٣] وهذا هو الحجر الصحى بمعناه

---

(١) هذا المصطلح مقتبس من قوله عليه السلام: « من بات آمناً فيسربه عنده قوت يومه ... إلخ» .

(٢) رواه البخارى ومسلم وأحمد وابن ماجة.

(٣) رواه أحمد

الصحيح.. ومن مميزات الإسلام أن أول أبواب الفقه فيه (باب الطهارة) بينما كان بعض رجال الدين اللاهوتيين فى العصور الوسطى يتباهون بأن المياه لم تمس أجسادهم لسنوات طويلة!!

٣- أمن القوت: إن واجب الدولة الإسلامية ضمان القوت للمجتمع الإسلامى، فالله سبحانه يخاطب المؤمن بفعل الأمر:

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾(١)

وتوفير القوت للمسلم ولغيره - بل للحيوانات - فرض من الفروض الإسلامية، يؤخذ من القادرين بقوة الشريعة وبصلاحيات الحاكم، ففى المال حقوق غير الزكاة تؤخذ بحيث تكفى المجتمع.

٤- أمن التعليم: فمن واجب الدولة الإسلامية أن تعمل على اشاعة التعليم بين أفراد طبقات المجتمع الإسلامى..وقد جاءت أول كلمة فى القرآن فعل أمر بالقراءة وجاءت آثار كثيرة تأمر بطلب العلم وتجعله فريضة.. وعلى المجتمع المسلم تطبيق هذه الأوامر من خلال آليات ونظم مختلفة تناسب كل العصور وتستفيد من انجازات التطور العلمى.

٥- أمن الكوارث: (٢) ويقصد به مواجهة الكوارث العامة التى قد تقع فى المجتمع كالزلازال والفيضانات والأمراض الفتاكة، سواء باتخاذ التدابير لحماية الناس منها، أم بالوقوف مع الناس - بما يصلحهم عند وقوعها..!!

---

(١) التوبة : ١٠٣

(٢) د. محمد الصادق عفيفى : المجتمع الإسلامى وحقوق الإنسان ص٩٧ وما بعدها

٦- أمن الدين: فالحفاظ على الدين هدف وواجب ورسالة.. بل هو خصوصية الأمة وقضيتها وجوهر عملها.. وبغيره تفقد رسالتها إلى العالم، وتكون مؤهلة للذوبان فى غيرها، وتعيش فى ضنك وفتن وهزائم، كما هو واقعها.. عندما تخلى كثير منها عن منهج الإسلام فى السياسة والاقتصاد والاجتماع فى العصر الحديث، بعد نجاح الغزو الفكرى والحضارى لها فالحفاظ على الدين - فى داخل المجتمعات الإسلامية - صغيرة أو كبيرة - أساس من أسس البقاء، كما أن نشره بين الناس واجب إسلامى عام.

- ومع تطور أساليب الحياة، وتعاظم التحديات، قد يصبح من أساسيات الحياة امتلاك الأمة والأفراد كثيرا من الأشياء التى يحمون بها وجودهم وإلا تعرضوا للفناء والحكم بالاعدام عليهم من قبل أعدائهم.. فلم يكن ملكية باكستان للقنابل الذرية، ترفاً.. ومن الواجب على العرب، فى مواجهة إسرائيل - أن يمتلكوا هذه القنابل.. وإلا كانوافى حكم الذين لم يأخذوا حذرهم، ولم يعدّوا مايستطيعون من قوة يرهبون بها أعداء الله وأعداءهم!!

* والأمر نفسه قد يكون فى التعامل مع الكمبيوتر والانترنت ووسائل الإعلام التى أصبحت أدوات للحفاظ على الوجود وللحياة فى عصرنا، ولمواجهة القوة التى لا ترحم الضعفاء - لأنها - أصلاً - لا تعرف الرحمة، حتى وإن كررت فى كل يوم ألف مرة عبارات الرحمة والحبّ والشفقة!!

القسمات الحضارية للتكافل الاجتماعى الإسلامى:

ليس التكافل الاجتماعى مجرد تنظيمات اختيارية يقيمها المجتمع المسلم، كما أنه ليس نافلة تطوعية يفعلها المسلم فيثاب، أو يتركها فلا ثواب ولا عقاب.. كلاً، فليس الأمر كذلك فى التكافل الاجتماعى.. وقد صور الرسول - صلى الله عليه وسلم - المجتمع المسلم بسفينة ليس من حق أحد أن يخرقها مهما كان موقعه، لأن فى ذلك إغراقاً للجميع وعندما لا يتحقق التكافل الاجتماعى فيختفى العدل، وينعدم التوازن، ويظهر الترف فى جانب، والفقر الشديد فى جانب آخر، تكون النتيجة انتشار الأحقاد، وظهور المذاهب الهدامة كالشيوعية والاشتراكية، وتتعرض سفينة المجتمع للهلاك، تقوم الثورات الحمقاء التى لا تبقى ولا تذر!!

وإذا كان الله تعالى يخاطبنا بقوله لنا:

﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾(1)

ويأمرنا أيضا بمقاومة الترف الذى يعدُّه نذير الهلاك:

﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾(2)

إذا كان الله يقول ذلك، فإنما يقوله ليلفت أنظارنا إلى أهمية ازالة التناقض وعوامل الصراع فى المجتمع، فالمترفون الذين لا يعطون

---

(1) البقرة : ١٩٥ (2) الأسراء: ١٦

المستضعفين حقوقهم يتحملون الوزر الأكبر فى تأجيج عوامل الصراع، ذلك لأن الترف ممارسة مدمرة سواء للجماعة التى تسكت عليها وتغض عنها الطرف، وتغلوا فى انهزاميتها فتتملق وتتقرب وتداهن، أو للمترفين أنفسهم الذين يعمى الثراء الفاحش، وما ينبثق عنه من ممارسة مرضية متضخمة مبالغ فيها، بصائرهم، ويطمس على أرواحهم ويسحق كل احساس أخلاقى أصيل فى نفوسهم، ويحجب عنهم - وهذا هو الأهم والأخطر - كل رؤية حقيقية لدور الإنسان فى الدنيا، وموقفه فى الكون، وطبيعة العلاقات المتبادلة بين عالم الحضور والغياب، والأرض والسماء.(١)

● لكن: هل المترفون وحدهم هم الذين يتحملون وزر إغراق سفينة المجتمع؟

كلاًّ: إنّ الفقراء والمستضعفين يمكن أن يكونوا شركاءلهم فى الوزر فربما استمرأ هؤلاء المستضعفون الفقر ورضوا به وعاشوا ينتظرون معونة الدولة أو معونة الأمة، ناسين أن الإسلام ينهى عن التسوّل والكسل والعجز وترك التكسب، ويأمر المسلم أن يستعيذ بالله، من العجز والكسل والفقر، وفى الوقت نفسه يأمر بالعمل ويجعله عبادة، يكرِّم العمال، ويعتبر كسب الرجل من يده أفضل المكاسب، يقول عليه الصلاة والسلام: ما أكل أحدٌ طعاماً قطّ خيرا له من أن يأكل من عمل يده، وإن نبّى الله داود كان يأكل من عمل يده»(٢)

وهكذا، فبينما يقاوم الإسلام الترف والمترفين، ويحملهم مسئولية

---

(٢) د. عماد الدين خليل العدل الاجتماعى ص٤٠ طبع مؤسسة الرسالة ـ بيروت

(١) رواه البخارى وأحمد وابن ماجة

كبيرة فى إغراق السفينة، يتجه - أيضا - إلى الفقراء والمستضعفين القادرين على العمل، يحثهم على عدم الاستسلام لواقعهم، والأخذ بأسباب الغنى والقوة... عن طريق العمل..

● وفى الوقت نفسه يضع ضوابط لحركة الجميع فى الحياة، بعيداً عن الأثرة والكبر والفساد والانحرافات.. بل يأمرهم أن يلتزموا - (بوسطية الإسلام وعدله) فى كل أمورهم، لأنهم شرائح من الأمة الوسط، ولأنهم ملزمون بالمنهج الوسط... وعندما يعرض القرآن لقصة (قارون)، وهو النموذج الذى يضعه الإسلام فى القمة من الترف الذى يستحق أشد أنواع العقاب - يورد القرآن فى ثنايا عرضه للقصة ونتائجها بعض القواعد التى يتجه بها إلى الجميع استفادةً من هذا الدرس البليغ.. يقول تعالى:

﴿ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾(١)

وفى الآية نلمح الوسطية والتوازنية والعدل بين الدنيا والآخرة، وبين المترف والفقراء، كما نلمح نهى القرآن عن استغلال المال للفساد فى الأرض.. وتنتهى بنا (قصة قارون) عند دروس أخرى تقدمها لنا الآيتان التاليتان:

---

(١) القصص : ٧٧

﴿ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْاْ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾(١)

فقد أصبح المنبهرون بقارون مؤمنين بفضل الله عليهم، حين لم يجعلهم مثل قارون مترفين، وإلا لكان مصيرهم الخسف بهم..

* وقد آمنوا بأن بسط الرزق بيد الله وأنه يفعله لحكمة، وهو ليس خيراً دائماً.. وتقدم الآية الثانية قانوناً ربانياً.. بأن الدار الآخرة ليست لطلاب الاستعلاء والإفساد.. بل للمتقين!!

- ومن جانب آخر يعالج القرآن قضايا توفير الحاجات البيولوجية والغذائية للناس عن طريق الحث على إنتاجها وتنميتها بالطرق الحلال والابتعاد بها عن الطريق الحرام التى تودى بأصحابها ففى حوالى مائة موضع فى القرآن ترد كلمة (الأكل) بتصريفاتها المختلفة، وفى حوالى خمسين موضعاً ترد كلمة (طعام) بتصريفاتها المختلفة وفى حوالى ثلاثين موضعا ترد كلمة (شراب) بتصريف قها المختلفة، وفى حوالى مائة وعشرين موضعا ترد كلمة (الرزق)

---

(١) القصص ٨٢ - ٨٣

بتصريفاتها المختلفة[1] وفى أكثر من ثلاثين موضعاً من القرآن الكريم ترد الدعوة لاطعام الفقراء والمساكين وسدّ حاجاتهم الاساسية، وفى أكثر من أربعين موضعاً يد التأكيد على فريضة الزكاة والصدقات والثناء على دافعيها والتنديد بمانعيها. وفى أكثر من سبعين موضعاً يتردد ذكر الإنفاق وتسلط عليه الأضواء من كافة زواياه[2]... وفى مجال التكافل الاجتماعي يدعو القرآن المسلمين أن ينظروا إليه كقضية أساسية، حتى لو أدىّ الأمر إلى الجهاد انقاذاً للمستضعفين من أيدى جلاديهم وظالميهم.. يقول الله تعالى

﴿ فَلْيُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾[3]

ويقدم الإسلام عددا من المبادىء ذات الأبعاد الدينية والحضارية من أجل أن تكون وسائل أو آليات تكفل تحقيق التوازن الاجتماعى، كما تكفل تحطيم الثراء الفاحش الذى يؤدى إلى الخلل الاجتماعى.. إن الإسلام يجعل المال كله مال الله، ويخاطب المسلمين وهو يأمرهم بالانفاق قائلاً:

﴿ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ﴾[4]

(١) د. عماد الدين خليل العدل الاجتماعى ص٦٢
(٢) المرجع السابق ص ٥٣
(٣) النساء : ٧٤
(٤) النور: ٣٣

وهذا أول المبادىء.

● وهو يجعل المال وسيلة لا غاية، أما الغاية فهى تعمير الأرض وعبادة الله بالمعنى الشامل للعبادة.. قال تعالى:

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[1]

● وهو يحرم الربا والمكاسب غير المشروعة، وسائر صور الاحتكار والغش وأكل الأموال بالباطل، والطغيان فى حالة الثراء، كما أنه توعد كل أصحاب الأموال بأنهم سيسألهم الله عن أموالهم من أين اكتسبوها، وفيما أنفقوها.

● ونظام المواريث يقوم بتفتيت الثروات بين الحين والحين..

● ومن المبادىء أيضاً تحريم اكتناز الأموال وعدم تشغيلها وقد توعد الله هؤلاء بعذاب أليم.

● ومن المبادىء أيضا محاسبة كل الناس عن مصادر ثرواتهم عند اللزوم وفق قانون: من أين لك هذا؟ وقد كان الخلفاء يطبقونه مع ولاتهم.

● ومن المبادىء أيضاً الحثّ على الانفاق العام فى سبيل الله، والتحذير من البخل وعواقبه.. قال تعالى:

﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴾[2]

---

(١) الذاريات : ٥٦ (٢) محمد : ٣٨

وقال تعالى:

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾(١)

● وبالاضافة إلى هذه المبادىء أوجب الإسلام بعض الفروض وسن بعض النوافل من أجل أن تكون روافد خير لتحقيق التكافل الاجتماعى، ومنها، وعلى رأسها، فريضة الزكاة، وصدقة الفطر، والكفارات، والاضاحى والنذور، والوقف، وواجب الضيافة، والوصيّة، وحق الماعون، والهدايا أو الهبات فى المناسبات المختلفة..

●وقد أحاط الإسلام كل ذلك بسياج من التربية النفسية والوجدانية، ووصلها بحبّ الله وايثار الآخرة على الدنيا، ووعد بالجزاء المضاعف عند خلوص النوايا وتحرِّى الحلال.

* وكان من شأن كل هذه الآليات أن ينطلق المجتمع الإسلامى فى التاريخ مثل سفينة يشعر جميع ركابها بمسئوليتهم عنها - إلا الشواذ - مقدمين مجتمعاً يقوم على التراحم والأخوة، والشعور بالهمِّ الإسلامى الواحد وبالجسد الإسلامى الواحد الذى يتأثر بحالة كل عضو فيه، ويبرز التعاطف معه، ويقدم له - مهما تناءت الديار - العون والمساعدة.

● إنه مجتمع يقوم فى تكافله على العقيدة والشريعة والأخلاق..

(١) آل عمران : ١٨٠

ويتـجـاوز نطاق المـاديات، لكنّه لايتـجـاهلهـا.. بـل إنه يمـزج بين الماديات والمعـنوٰيات، كـمــايهــتم بالنيــات والأهداف، وبالفــرد والمجتمع، وبالرجل والمرأة، وبالغنى والفقير، والقوى والضعيف!!

● إنه ليس مجتمع تناقض وصراع، بل هو مجتمع تكافل وتراحم، ذلك لأنه مجتمع لايفصل بين ما لله وما لقيصر، فكل شىء فيه لله، وكل الأعمال يمكن أن تكون دينا وعبادة.

●إنه مـجتـمع تمتـزج فيـه الدنيـا بالدين، والعلم بالعـمل، والوحى بالعقل..

● إنه مجـتمع المعـادلة الحضـارية السليمة،الذى يـضع كل انجازت أوروبا وأمريكا والحضارة المعاصرة فى بوتقة الإيمان.

● ولن تسعد البشرية إلا إذا عـاد هذا المجتمع لمكانته ودوره، ورأتْ فيه البشرية النموذج الذى تحـتذيه، والذى ينقذها من فلسفة الصراع والتناقض، وطغيان المادة، واهمال الروح!!

● ويوم يتحقق هذا يتحقق التكافل الإنسـانى العام، ويتحقق العدل للجميع.. بكيل واحد.. حـتى لو اختلفت الأديان والمصالح.. وهذا ما ينبغى أن يجاهد فى سبيله المسلمون.. والمنصفون من طلاب الحق والعدل والخير.

الوحى والعقل
جناحا الحضارة الإسلامية

○ العقل: الوسيلة الوحيدة لفقه الدنيا والدين
○ الأنبياء قادة العلم
○ وعلم آدم الأسماء كلها
○ الدين والعلم كلمتان مترادفتان فى القرآن: "ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم"
○ لا نزاع بين الدين والعلم
- لا فى المنهاج
- ولا فى الموضوع
- ولا فى الأهداف

العقل: وسيلة اكتشاف الدنيا وفقه الدين

يجب الانطلاق من مقولتين نراهما صحيحتين كل الصحة...

ــ المقولة الأولى: إنه ليس بالدين وحده يحيا الناس.

ــ والمقولة الثانية: إنه ليس بالعقل وحده يحيا الناس. فالدين لن يعمل فى الحياة عمله إلا بواسطة أصحاب عقول.. والعقل لايستطيع وحده أن يبنى حياة إنسانية، دون معالم الدين، ودون هدى الوحى، وغذاء الروح والضمير، والمنظومة القيمية والأخلاقية، وغير ذلك مما ينبع من الدين، ولا يستطيع غير الدين أن يقدّمه.

ــ ولو كان الدين وحده يستقيم بدون العقل لكلف الله الذين لا عقول لهم، ولكن كل الأديان تربط التكاليف الدينية بالعقل، وتعفى منها الذين لا عقول لهم، صغاراً كانوا أو سفهاء!! وكذلك لو كان العقل قادراً على فك ألغاز الوجود وقيادة خطوات الإنسان، من غير الخدمات العظيمة التى يقدمها له الدين، ومن غير الحراسة الكبيرة التى يحميه بها الدين لما كانت هناك حاجة بأن يرسل الله الرسل إلى الأرض، وأن ينزل عليهم الكتب التى تحمى العقل من نفسه ومن الأهواء والغرائز وتعبِّد له الطريق وتمهده، وتضع له شارات الحق والباطل، والخير والنور، والصعود والهبوط، والسعادة والشقاء.

وهؤلاء المرسلون لم يطلبوا أجراً، ولم يبنوا من خلال رسالاتهم

قصوراً شاهقة، بل كانوا أقرب إلى الفقراء والمستضعفين منهم إلى الأغنياء والمترفين، وقد عانى أكثرهم وعذّبوا وقُتل بعضهم، ومع ذلك فقد رفضوا جميعاً أن يبيعوا رسالتهم أو أن يخونوا الأمانة التى كلفهم الله بها، بل صبروا على ما كذّبوا حتى أتاهم نصر الله، وانتشرت كلمات الله.. ولو كان الأمر يقوم بالعقل وحده، لما كان هناك داعٍ لآلاف الرسل الذين أرسلهم الله، ولما كان هناك داعٍ لصحف إبراهيم ولا لزبور داوود، ولا لتوراة موسى، ولا للإنجيل الذى نزل على عيسى.. ولا للقرآن الذى نزل على محمد (ﷺ).

ـ ومن الرائع أنّ هؤلاء المرسلين بالكتب التى نزلت عليهم ـ ما كبّلوا العقل ولا قيدوه، بل أرشدوه ووجهوه، وأخذوا بيده إلى الطريق الذى يضمن العافية ـ والسلامة والخير الدائم واحقاق الحق وإبطال الباطل، واحترام حقوق الفرد صاحب العقل الواحد، والآخرين من أصحاب العقول الذين يعيشون معه، بل إن هذه الأديان ـ فى حقيقتها ـ جعلت عمل العقل فى اكتشاف آلاء الله وفي تسخير قوانين الله فى الكون ـ عبادةً من العبادات، فبدلاً من أن يكون العلم للعلم، والفن للفن، يكون العلم والفن لخدمة الإنسان ولتحقيق الخير، وتطبيق ما ورد فى الكتب السماوية!!

ـ ولا تؤاخَذُ الأديان بانحرافات المنحرفين، وإلا لسقطت كل مبادىء الدنْيا، وكل مذاهبها ونظمها، كذلك لا تؤاخذ الأديان بالانحرافات التى أسقطها عليها المنحرفون سواء نجحوا فى الإسقاط على مصادرها أو نجحوا فى تأويل تعاليمها والانحراف بها عن

غايتها، فالله ورسله أبرياء مـن هؤلاء المحرفين للكلم عن مواضعه، كـما أن الله ورسله أبريـاء من الكافرين بالـدين كله وبالوحى كله، الذين يرون ان الله لم يرسل رسلاً ولم ينزل كتبا، وأنه يمكن بالعقل وحده أن يعيش الإنسان!!

- إن هؤلاء المنْكـرين للأديان الكافـريـن بالله ورسله شـأنـهم شـأن هؤلاء المشـوهين للأديان الكـاذبين على الله ورسله وهم جـمـيـعـاً أعداء الله وأعداء الإنسانية، وقادتها إلى الخراب والدمار...

ومنذ خلق الله آدم، والدين والعلم معاً يتعانقان ويتكاملان، ويساعد أحـدهما الآخـر.. وكـما كـان نوح - عليـه السلام - (الأب الثـانى للبشرية) نبياً كان كذلك صانع أشهر سفينة فى التاريخ.. وكما كان داود نبيـاً كان أول من صنع من الحديد أقـمصة ودروعـاً، وكان ابنه النبى سليمان - عليهمـا السلام - أول من سخرت لهم الرياح تحمله وتحمل جيوشه، وسخرت له الشـياطين تغوص فى أعماق البحار.. وجاء الرسول محمد - صلـى الله عليه وسلم وأنزل الله عليه كتاباً، جاءت أول كلمة فيه: «اقرأ باسم ربك الذى خلق».

- إنها رحـلة الدين والعلم معـا... فلْنحاول اسـتكشاف أبرز مـعالم هذه الرحلة الرائعة!!.

معاً على الطريق منذ البداية

منذ ظهر الإنسـان على شاشـة الكون، خليفة لـله فى الأرض، وثمة مـصبـاحان منحـتهـمـا له العناية الإلهـية، الوحى «الدين» والعـقل

«العلم» وبهما معاً إطلق سراحه من الجنة ليسير رحلة هذا الكوكب الأرضى.

فالدين بدأ مع آدم أبى البشرية - والعلم بدأ معه ايضاً - كما تُجمع على ذلك كل الكتب المقدسة التى هى المصدر الوحيد للتاريخ لهَذه الفترة المبكرة جداً من حياة البشرية، وإنه لمن باب العقوق والغرور ايضا أن يضع بعض الناس تعريفات للعلم، تجعله قاصراً على عصر بعينه، بل تجعله - كما يقول ج برونوفسكى:- «من ابتداع الأعوام الثلاثمائة الأخيرة، حوالى ١٦٦٠م» حينما نفضت أوروبا عنها ذلك الكابوس الطويل من الحروب الدينية واستقرت لها الحياة على التجارة والصناعة»[1].

وفى تعميم شديد تذهب رواية أخرى إلى أن العلم ظاهرة متأخرة فى حياة البشرية.. وأن البشرية عاشت قبل ذلك عشرات الألوف من السنين دون أن يتكشف نشاطها عن تلك الظاهرة التى نطلق عليها: اسم العلم»[2].

إن هذه الجرأة فى الحكم الظالم على مراحل تاريخية طويلة، وحضارات مندثرة، هى بذاتها ليست من العلم فى شيء، بل هى غرور عصرى محدود الرؤية، والأليق بمنهج العلم أن لا يكذب ما لا يعرف وأن يتواضع، فيضع نفسه - فى حركة التاريخ - باعتباره امتداداً لمراحل سابقة، وليس نبتة مقطوعة الجذور، وما علم العصر

(١) برونوفسكى: العلم والبداهة. نشر دار النهضة العربية بمصر.
(٢) أنظر د.فؤاد زكريا: التفكير العلمى ص٥٧ نشر الكويت.

الحديث ـ فى رأينا ـ إلا حلقة فى سلسلة طويلة بدأت مع بداية البشرية ولن تنتهى إلا بنهايتها.

إن الدين والعلم قد اصطحبا الإنسان منذ أول مشكلة ـ أرضية ـ فرضت نفسها عليه، أى منذ رأى مشرق الشمس ومغربها يتكرران كل يوم، ومنذ رأى النجوم ولاحظ ثبات بعضها وحركة بعضها الآخر، ومنذ واجه القوى الطبيعية التى هددت وجوده«[1]».

فحاول أن يتلمس لكل ذلك تفسيراً وحلاً، فواجه الأمر بجانب ديني وجانب علمى، وأخفق هنا تارة ونجح هناك تارة أخرى.. لكنه كان يتحرك بالمصباحين معاً، ولم توجد حقبة فى التاريخ خلت فيها الأرض من الدين، أو خلت من العلم، حتى وإن اعتورهما الضعف فى بعض فترات المسيرة البشرية المتعرجة الطويلة.

ولعل تعريف الدين وتحديد مفهوم للعلم مما يساعد على إبراز هذه الحقيقة.

ما الدين وما العلم؟

تنطلق تعريفات الدين والعلم من التصور السابق لرسالة كل منهما فى الحياة وطبيعة هذه الرسالة وحجمها، وبالتالى فلنا أن نتوقع تعريفات لهما بمقدار هذه التصورات.

ويرى «شلير ماخر» أن الدين مجرد شعور بالاعتماد على المطلق، ويرى «هافلوك أليس» انه أيضاً مجرد إحساس مباشر بالاتحاد مع

(١) انظر دكتور محمد حسين هيكل: الإيمان والعلم والفلسفة طبع مصر ١٨، ١٩

العالم، أي ذوبان الفردية في الكونية، بينما يرى «موراي» انه طريقنا للاتصال بقوى العالم العظمى، أما «شبنجلر» فيصفه بأنه «الميتافيزيقا التي تعيشها ونجربها، أي ما لا يمكن أن نفكر فيه كيقين، والأعلى من الطبيعة كواقع، والحياة كوجود في عالم ليس واقعا ولكنه صادق»[1].

وهو تعريف أكثر امتداداً كما نرى، ولكنه لا يصل إلي التعريف الإسلامي الذى يرى في الدين: انقياداً لله وفق قوانينه الكونية بالأسلوب الذى يشرعه هو، سواء على مستوى العبادات الفردية أو المعاملات الجماعية...

أما العلم: فهو فى رأى بعضهم مجرد العلم الوضعى على التجربة وهذا تعريف مطاط يتغير بتغير الاهتمامات، ففى القرن التاسع عشر كان الاهتمام مركزاً على العلوم الجيولوجية، أما فى القرنين السادس عشر والسابع عشر فكان الاهتمام مركزاً على علم الفلك[2]، وفى القرن العشرين أصبح العلم فى مخيلة البعض وكأنه مجرد «التكنولوجيا» الحديثة وغزو الفضاء.

لكن هذه التعريفات لا تمثل وجهة نظر أكثر العلماء ـ الذين يحددون للعلم دائرة أكثر شمولاً فيرون أن سلسلة من تصورات ذهنية «المعانى المجردة» ومشروعات تصورية «افتراضات» مترابطة متواصلة هى نتاج حدثين: الملاحظة

---

(١) انظر: ول ديورانت: مباهج الفلسفة ٢، ١٩٨ طبع القاهرة

(٢) انظر: برونوفسكى: العلم والبداهية ص٦٤

والتجـريب، بحيث تلد الفكـر فكرة، وتؤدى التجربـة إلى تجربة بصورة متطورة ومستمرة [1].

والحق أن العلم منهج للتـفكيـر في منطقة قـابلة للبحث «الطـبيـعة» بوسائط معـينة، بغية استخـلاص «القوانين الكونية» وما يتبـعها من جـزئيـات تفسـر هذا الكون وتسـخـره للإرادة الإنسـانيـة، إنه ليس تفكيـراً لفـئة خـاصـة، بل نوع من التـفكيـر المنظم الواعى بأوليـات الأشـياء، والمتـسم بالنزاهة والشـموليـة والدقة، والرغـبة الجـادة فى الوصـول إلى الحـقيـقـة المجردة عـن طريق العقـل، الذى يمثل ملكة تركـيب عليا قـادرة على تجـاوز الجزئـى إلى الكلى، وطرح الأفكار المضادة، وصياغة القوانين العامة!!.

إننا نشير هنا إلى أننا نتجاوز التعريفات الرافضة والمشكلة فى وظيفة العلم، ونرى أن هذه التعـريفات مجـرد نظرات شخصـية متشـائمة ولسنا هنا بصدد الوقوف عند مثل هذه النظرات الضيقة.

رحلة الدين والعلم فى التاريخ

لم تصل بنا التعريفات السابقة، كما لم يصل بنا فهمنا الخاص لمعنى الدين والعلم إلى أن ثمة تعـارضا بينهما، بل إن التكامل بيـنهما هو الأمـر الأقـرب للصواب، فـكلاهما مـحـاولة للالتـحـام بالكلى أو المطلق، والإنسـجام مع القـوانين الكونية، وكـشف حجب الحـقائق

(١) انظر: (بتـصرف) جـيمس كونانت: مواقف حـاسمة فى تاريخ العلم ص٤٦ طبع دار المعارف

كما هى وفق طريقين متكاملين: طريق يشرعه الله، وطريق يجتهد فيه العقل، وليس ما يشرعه الله إلا سياجاً يحوط مسيرة العقل من الحيرة والزيغ، وليس - كما يتصور البعض - عقبات فى طريق مسيرة العقل وكما أن التعريفات لا تفيد وجود تضاد بين الدين والعلم، فإن المسيرة التاريخية لمبادىء الدين والعلم المنبعثة من أصولهما ومبادئهما «وليس سلوك رجال الدين» لا تفيد تنافراً ما، بل تفيد للتعاضد والتكامل، وإذا كانت حضارة عصر النهضة التى انبثقت عنها الحضارة الحديثة قد أنتجت لنا روح خصام بين الدين والعلم فإن مبعث هذا فى الحقيقة هو موقف رجال الكنيسة ـ وليس الدين نفسه...

لقد وقف رجال الكنيسة ضد العلماء وأحرقوهم ونكلوا بهم.

ويضاف إلى ذلك موقف بعض رجال العلم أيضاً.. هؤلاء الذين اتخذوا رد فعل قاس ضد رجال اللاهوت المتشددين فذهبوا إلي تحطيم كل ما هو «ثابت» فى الكون والفكر!!.

لقد نشأ الفكر ـ الذى هو أب للفلسفة والعلم ـ من الدين نفسه ـ وبما أن الفكر قد بدأ فلسفياً أقرب إلى «الميتافيزيقية» فإنه ـ فى هذه المرحلة ـ كان يعيش فى محضن أبيه «الدين» بطريقة مباشرة، وقد ظلت «الفلسفة» ردحاً من عمرها تحاول خدمة والدها الشرعى، عن طريق تكييف المعقول وتوجيهه بحيث يخدم المنقول الإلهى، ولم يحدث التمرد من جانب الفلسفة على الدين إلا فى تلك العصور التي كانت تتوه فيها معالم الدين الحق، وذلك مثل العصر اليونانى

الذى برزت فيه الأساطير بشكل سيء وانحطت صورة الألوهية إلى درجة مزرية على يد المتاجرين بالألوهية «الميثولوجيا الشعبية»!!

وقد نسب الأثينيون إلى الألهة كل ما هو مخجل أثيم فى البشر، وسخر للسوفسطائيون من الألوهية، وظهرت ـ بالتالى ـ الفلسفة ساخرة متعالية غير حافلة بالمعتقدات الدينية[1] وذلك كرد فعل للتصورات البدائية التى روجها الكهنة الوثنيون لكن الفلسفة لم تلبث أن حاولت العودة إلى محضن الدين على يد سقراط الذى كان يعتبر الجريمة أسوأ من الموت، ويعتبر الموت دخولاً لقصر الله.

وقد سلم أفلاطون وأرسطو بالاعتقادات الموروثة فى ألوهية السماء وميز أفلاطون الفيلسوف بأنه القادر على فهم فكرة الله سر الحياة المقدسة[2] حتى إذا جاء الرواقيون أخذوا على عاتقهم إنقاذ مايمكن إنقاذه من المعتقدات الدينية، فأوّلوا كل مايمكن تأويله من الأساطير والرموز.

ثم كانت الأفلاطونية الحديثة التى نظرت الى جوهر العقل، وحاولت أن تتعالى بمذهبها فى الواحد اللامتناهى فوق العقل نفسه، وسمت بالألوهية عن الأشياء والحياة وعن الفكر نفسه.

وإن كانت قد وضعت سلما من الكائنات المتوسطة بين الصور العليا للموجودات والصور الدنيا، فسوغ أفلاطين وتلميذه «فرفريوس» من وجهة نظر العقل جميع مبادئ الدين، دون تمحيص

---

(١) اميل بترو: العلم والدين ص١٠ طبع القاهرة

(٢) انظر : محمد عبدالقادر : بيولوجية الإيمان ص٢٠

عقلى مؤولاً القرابين والأيقونات والسحر بأنها رموز متوسطة بين المحسوس والمعقول، وأنها تشارك فى الحقيقة بما تلعبه من دور ضرورى يوجه الأنسان نحو الجوهر اللامادى الذى ليس كمثله شئ.[1]

أما فى مصر القديمة ـ مهد الحضارات ـ فإن فكرة الايمان والتوحيد لاقت رواجاً كبيرا على الرغم من التقدم العلمى الذى عرفت به مصر خلال هذه العصور، وقد بلغت فكرة التوحيد ذروتها على يد (أخناتون ١٣٧٥ قبل الميلاد) الذى ولى الحكم بعد أبيه أمنحتب الثالث.

وكان أخناتون رجل دين وفيلسوفاً معاً، ولهذا دخل فى صراع مع المتاجرين بالدين من كهنة طيبة أصحاب النفوذ. وقد عمد أخناتون إلى إبراز الإله (أتون) فى صورة تجريدية، وتوحيدية، وعالمية، تقترب كثيراً من صورة الإلهية فى الأديان المعروفة.[2]

وفى الهند ـ كما فى مصر واليونان ـ ظهرت النزعة الدينية والفلسفية أيضا: وقد تجلت فى الهندوسية القديمة «البراهيمية» واجتمعت فى شخصية كل من «بوذا» و«فاردهمانا ماهاميز» شخصية الحكيم «الفيلسوف» ورجل الدين معاً.. ونشأ عنهما مذهبان فيهما قدر من الفلسفة وقدر من السمو الروحى، هما البوذية، والجينية التى تعتبر ابنا ثانيا للبراهيمية. وفى الصين ظهرت

(١) بتصرف: بترو: العلم والدين ص١٤ ، ١٥

(٢) انظر : د. محمد محمود عبدالقادر : بيولوجية الإيمان ص٣١ ومابعدها.

الكونفوشيوسية سنة ٥٥٠ قبل الميلاد، فأحيت التراث الفلسفى للصين، ممثلا فى الكتب الدينية الخمسة القديمة التى يمتد أولها الى ٣٣٠٠ سنة قبل الميلاد.

وفى اليابان ارتبط اليابانيون بالديانة «الشنتوية» التى تعنى طريق الأرواح الخيرة وكان ذلك فى القرن السادس قبل الميلاد.

وفى فارس ظهرت المجوسية فى القرن الخامس قبل الميلاد على يد الحكيم (سبتا مازارازوسترا).

وهكذا نستطيع أن نستعرض بقاع الأرض كلها، لنرى صوراً من المسيرة المشتركة بين الحكمة (الفلسفة) والدين، ولنرى أن الفلسفة والدين كانا يفرضان تأثيرهما مادامًا فى حدود الحق والعقل والخير للإنسان، وأنهما كانا سينحدران معاً إذا أصبحا لعبة فى يد سوفسطائيين أو كهنة متاجرين.

وعندما جاءت اليهودية إلى العالم كانت ـ على يد نبى الله موسى عليه السلام وأتباعه الأوائل ـ دفعة جديدة إلى تقدم العالم.

وكانت الشريعة الموسوية أكبر حافز لتكوين خلق اليهودى القوى، والتمكين من تنظيم الحياة والحث على العناية بالنفس والجسم والرفق بهما، وقد أعطت اليهودية للعالم التوحيد، كما أعطته أول تبشير بالعدالة الاجتماعية ووحدة الإنسانية [1].

وكانت فى عهد موسى وهارون إحياءً للحنيفية الإبراهيمية التوحيدية الكريمةولدعوات كل الأنبياء السابقين، فلما جاء الفكر

١- ول ديورانت: مباهج الفلسفة ٢/٣٥

المسيحى لم يكن ثمة مجال لخلق صراع بين الدين والعقل فى مراحله الأولى.. لقد كانت المسيحية تركز فى المراحل الأولى على المحبة، كما أن فكرة الألوهية فيها لا تتعارض مع أى إبداع أو تفسير عقلى للظواهر، فكل مافى الكون إنما هو نماذج لقدرة الله خلقها من العدم بمشيئته المطلقة «وقد التقت المسيحية بالفكر العقلى والعلمى متشحاً برداء الفلسفة اليونانية، ووجدت فى هذا اللقاء مناسبة تجلو فيها لنفسها روحها الخاص بها، فقدمت المسيحية الإيمان بالوحى السماوى والإحساس ببؤس الإنسان، والإيمان بإله المحبة والرحمة.. ثم آثرت المسيحية أن تأخذ من الفلسفة اليونانية مايفيدها فى تدعيم عقائدها؛ فأخذت علم الوجود (الأنطولوجيا) وأخذت المنطق الأرسطى بعد أن صبغته بصبغة صورية بحتة» (١)

وفى الحضارة الإسلامية كان الالتحام بين «العلم» وبين الدين واضحاً وقوياً، بل إن الإسلام جاء منذ آياته الأولى يعلن ميلاد عصر «العلم» والإيمان عن طريق «العلم».. يقول الله فى القرآن الكريم:

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾(٢)

لقد حشد القرآن مايقرب من سبعمائة آية فى تحريك العقل البشرى وانتشاله من وهدة التقليد والتبلد، كما حشد عشرات الآيات فى

(١) انظر اميل بترو: العلم والدين فى الفلسفة المعاصرة ص١٥
(٢) سورة العلق : ١ ـ ٥

إيقاظ الحواس من سمع وبصر ولمس، وعشرات أخرى فى إيقاظ التفكير والتفقه، فضلاً عن آيات طلب البرهان والمحبة والجدال بالتى هى أحسن. بل إن القرآن أضاف حقيقة فى غاية الأهمية هى أنه أطلق كلمة العلم على الدين، [1] كأنما يمزج بينهما فى مرحلة العصر القرآنى مزجاً لا فكاك له. ومن ثم يغدو العلم والدين سواء فى لغة القرآن.

يقول القرآن الكريم مخاطباً النبى عليه الصلاة والسلام.

﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[2]

أى من بعد ما جاءك من الدين ــ ويقول

﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ﴾[3]

أى الدين - ويقول الله عن القرآن نفسه:

﴿ وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً ﴾[4]

فالآيات كلها تفيد أن ما أنزل الله على محمد من دين إنما هو

---

(١) انظر : عماد الدين خليل - تهافت العلمانية ص٢٧طبع بيروت (بتصرف)

(٢) البقرة : ١٤٥

(٣) آل عمران : ٦١

(٤) الاعراف: ٥٢

«العلم»، وأن القرآن مفصل على «علم» كما تبين آية أخرى هى قوله تعالى:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾(١)

هذا المزج الذى يتجلى فى أوضح صورة فى التاريخ الإنسانى بين العلم والإيمان.

وحسبنا أن نشير إلى أن كلمة «علم» بتصريفاتها المختلفة قد وردت فى القرآن فى أكثر من سبعمائة وخمسين آية!!

تلك هى بعض معالم مسيرة الدين والعلم فى أصولها وأهدافها أى فى مستوى «التنظير».. أما مسيرة «التطبيق» أعنى مسيرة الرجال الذين حملوها، وتصدروا الدعوة إليها فتلك قضية أخرى منفصلة سنتناولها فى الصفحات التالية.

قضية النزاع بين الدين والعلم

يستطيع المؤرخ الأمين أن يزعم بأن النزاع بين الدين والعلم لم يظهر فى مراحل كثيرة من التاريخ: لأن «العلم» كان في موقف المستسلم اليائس من المعركة، وأن السيطرة كانت مطلقة لرجال الدين. ولما شبّ العلم عن الطوق أقيمت له علي يد كنيسة العصور الوسطي المذابح الهائلة التي ترتعد لهولها الفرائص.

وقد يكون هذا صحيحاً بالنسبة لعلاقة الكنيسة الأوربية في العصور

(١) الروم : ٥٦

الوسطي بالعلم. لكننا لم نشهد في عصور التاريخ المختلفة، ولا في سير الأنبياء الآخرين مثل هذا الأسلوب.

كما أن اليهودية التي حفلت أسفارها بكثير من التناقضات العقلية لم تشأ أن تعلن مثل هذه الحرب علي العلم فيما نعلم من تاريخها. بل إن اليهودية - حتي في العصر الحديث - قد قدمت أكثر العلماء شذوذاً وتمرداً علي القيم الدينية، ومع ذلك افتخرت بهم، ولم يلحقهم أذى من قبلها، بل نالهم الأذى من رجال الكنيسة المسيحية.

أما في الحضارة الإسلامية فعلي مستوى التطبيق الإسلامي - فضلاً عن موقف القرآن - فإن ما يسمى بالنزاع بين العلم والدين أمر لم يظهر كقضية في الحضارة الإسلامية، بل قد اعتبر العلماء الطبيعيون والفلكيون والرياضيون أنفسهم فى عبادة لا تقل عن عبادة إخوانهم علماء الدين، وقد وضع علماء الإسلام منهجاً تجريبياً حسياً وعقلياً فى البحث مختلفاً عن المنهج اليونانى. كما وضعوا نظريات علمية مستقلة للمعرفة «ايستمولوجيا». وقد ظلت آثار هؤلاء العلماء المسلمين هى الآثار العلمية المعتمدة خلال العصر الوسيط كله، ومن هؤلاء العلماء: ابن النفيس مكتشف الدورة الدموية الصغرى، وجابر بن حيان مكتشف الصودا الكاوية وحامض الكبريتيك بعد تقطيره، والرازى مكتشف زيت الزاج، وعدة أمراض، وابن الهيثم مكتشف علم البصريات، والفرغانى واضع علم المثلثات، والكندى مؤلف في البصريات، والإدريسي مثبت كروية الأرض،[1] فضلاً

(١) أنور الجندى: الإسلام والتكنولوجيا نشر مصر ٤٠، ٤١

عن ابن حزم الذي عقد فصلاً كاملاً عن إثبات كروية الأرض نقلاً وعقلاً في كتابه المرسوم باسم «الفصل في الملل والنحل»، وابن البيطار في الصيدلة، وابن الحفيد في العدوى، وغيرهم ممن لا يمكن حصرهم في هذا المقام. والمهم أنهم جميعاً كانوا يتعبدون بعلمهم ويتقربون إلي الله به، دون أن يشعروا بأى انفصال، فضلاً عن نزاع بين العلم والدين، بل كثيراً ما كان بعضهم فقهاء في علوم الدين ورجال علم في الوقت نفسه!!

وقد بدأت القضية تطفو علي السطح مع ظهور عصر التنوير أو عصر النهضة الأوربية، وبداية الوقوف - بحزم - من رجال العلم ضد سيطرة الكنيسة المطلقة، وكان من أبرز هؤلاء الرجال فرانسيس بيكون (١٦٠٦) ورينيه ديكارت (١٧٥٠) وباروخ أسبينوزا (١٦٧٧) وجون لوك (١٧٠٤) ودافيد هيوم (١٧٧٦) وفولتير (١٧٨٨) وعمانويل كانت (١٨٠٤) وجوهان فون جيته (١٨٣٢) وجورج هيجل (١٨٣١) وآرثر شوبنهور (١٨٦٠) ورالف امرسن (١٨٨٣) وهربرت سبنسر (١٩٠٣) وفردريك نيتشه (١٩٠٠) ووليم جيمس (١٩١٠) وجان جاك روسو وغيرهم، وقد بالغ هؤلاء في تحديهم فألقوا حبة الحنطة مع قشرتها، ورفضوا الدين والكنيسة معاً، وتعاونوا - بالتالي - مع الكنيسة التي وقفت ضد العلم في إشاعة جو «العلمانية» و«اللادينية» و«المادية» في روح المدنية الحديثة. وذاق العالم الكثير من الدمار من جرّاء هذا الانفصام والصراع فى أخلاقه وقيمه التي آمن بها علي امتداد تاريخ البشرية

كله، بحيث بدا صرح الفكر الإنسانى وكأنه بناءٌ آيل للسقوط.

اعتراضات اللادينيين ضد الدين

سنطرح تلك الافكار الثورية والعبارات الصارخة التى يقولها اللادينيون عن الدين، لأننا هنا فى مجال بحث رصين، ولسنا فى مقام استعراض شعارات «أيديولوجية» فارغة، يلوكها البعض دون وعى بمضمونها.

وكما أننا سنطرح شعارات عصر فولتير والثورة الفرنسية ضد الدين فإننا أيضا ـ ولنفس السبب ـ سنطرح شعارات الماركسيين، فكلها ردود أفعال عنيفة لا مضمون لها، وسندخل الى حلبة العلماء فى عقل وأناة لنرى ماذا يقدمون من اعتراضات علمية ضد قضية الدين، ولنرى هل بإمكاننا أن نديو حواراً علمياً معهم، أو على الأقل نستنجد بعلماء آخرين ـ كمحامين ـ يردون دعاواهم.

فمن ناحية المنهج: هل يختلف منهج البحث فى الدين عن منهج البحث فى العلم؟

إننا إذا نظرنا إلى الشروط المطلوب توافرها فى الباحث هنا وهناك، من حيدة وعدل، ونزاهة وموضوعية لوجدناها واحدة..

فهل ثمة خلاف فى أساليب البحث نفسها؟

وإن تنظيم الأفكار والتمهيد لها ببعض الفرص، ثم اختبار هذه الفروص، واستخلاص الظواهر العامة منها فى ظل شمولية، ودقة، واستقراء كامل، إنما هى معالم التنظيم المنهجين معاً، منهج البحث

فى مجال العلوم الدينية ومنهج البحث فى مجال العلوم الدنيوية «الطبيعية».
إن الخلاف يأتى من تصور أمرين:
تصور أن مجال البحث ـ أىْ موضوع البحث ـ مختلف، فموضوع البحث الدينى، هو «الميتافيزيقيا» وموضوع البحث العلمى هو «الفيزيقيا» وبالتالى فإن أهدافهما مختلفة وطرائق بحثهما مختلفة.
والحقيقة أن كان من الأولى ـ عند هذه النقطة ـ أن يكون اختلاف مجال الدين ومجال العلم نقطة التقاء، إذ أنه لا تعارض بينهما، بل هما يتكاملان ويسدّ كل منهما فراغاً لا يسده الآخر.
والتصور الثانى الذى انبنى عليه تصور التناقص بين الدين والعلم أن طريقة البحث بينهما مختلفة تبعاً لاختلاف موضوع البحث، فمادام العلم يبحث فى هذا العالم فإنه يبدأ من الحواس، ويعتمد على المعامل والمختبرات، ويستعين بالوسائل السمعية والبصرية، أما الدين فمجاله اللامنظور، ووسائله كلها افتراضية وتجريدية وعقلية، وبالتالى فلا لقاء بينه وبين العلم، لا فى موضوع البحث ولا فى منهج البحث.
وفيما يتعلق بالتصور الأول فالحقيقة أن موضوع البحث الدينى ليس ما وراء الطبيعة وحسب بل إن الإنسان والكون المادى الذى هو موضوع نظر العلم، كلاهما من مجالات البحث الدينى أيضا[١]..
فاختلاف مجال البحث بين العلم والدين أمر مشكوك فيه، ليس فقط من جهة ماذكرناه من أن الدين يمد النظر والرؤية إلى سائر الكون بها

(١) عبدالمنعم خلاف، المادة الإسلامية وأبعادها ص١٩ طبع القاهرة

فيه الإنسان، ويحث المؤمن على البحث فى آفاق الأرض والنفس حتى يتبين له الحق.. بل إن سور القرآن تتوالى حاملة أسماءها وكأنها تعرض شاشة الكون كله لتكون مجالا للبحث،.. انظر أسماء هذه السور: «الرعد ـ النور ـ الدخان ـ النجم ـ القمر ـ المعارج ـ التكوير ـ الانفطار ـ الفجر ـ الليل ـ الضحى ـ الزلزلة»... وغيرها مما يمتّ بصلة إلى مظاهر الكون وآفاقه المختلفة.

لكن مجال البحث بين العلم والدين متفق من جهة أخرى، هى أن موضوع العلم قد امتد إلى ما وراء الطبيعة، وقد أصبح بإمكانه العلم تناول ظاهرة أولية «حدوث العالم» وليس أزليته، بالإضافة إلى نهايته، وذلك فى ظل كشف «القانون الثانى للحرارة الديناميكية» والذى يصف لنا انتقال الحرارة دائماً من «وجود حرارى» إلى «عدم حرارى»وإن العكس غير ممكن مما يجعل كفاءة عمل الكون تقل يوماً بعد يوم، ولابد من يوم تتساوى فيه حرارة. جميع الموجودات وحينذاك لاتبقى أية طاقة مفيدة للحياة والعمل، ويترتب على ذلك أن تنتهى العمليات الكيماوية والطبيعية[(١)] وانتهى تلقائياً الحياة، نفسها.

لقد أصبح موضوع البحث متقارباً جداً إذن بين موضوعى العلم والدين، وقد أعجبنى فى بيان هذا الأمر عنوان للفيلسوف الذى لم يستطع أن يصل إلى شاطىء الحقيقة، على الرغم من توافر كل الوسائل لديه، أعنى «برتراند رسل»،فقد وضع عنواناً لفصل من

(١) وحيد الدين خان: الإسلام يتحدى ص٧٤

فصـول أحد كتبـه أسماه «الميـتا فيـزيقا العلميـة». وفى هذا الفصل يسجل علي الرغم منه ـ ذوبان تلك الحدود الفـاصلة بين موضوعى العلم والدين، وهـو يأسف لأن رجل الشـارع مـا كاد يـؤمن بالعلم حتى بـدأ رجل المعمل يفـقد إيمانه به، بحـيث إن الفلسفـة الجديدة لعلم الطبيعة فلسفة متواضعة متعلثمة، بينما الفلسفة السابقة متكبرة متغطرسة،"[١]" ولايملك «رسل» إلا أن يعترف ـ أمـام القانون الثانى للحرارة الديناميكية ـ بأن الكون الآن يعتبر متناهيا، ويتكون من عدد مـحدد من الألكتـرونيـات والبروتونات، وإن له بـالتالى بداية كـان عندها منظماً تنظيـماً كاملاً، ثم بدأ يفـقد أجزاءً من كمـاله فى اتجاه الفناء. «[٢]»

كما أن رسل، ومن خلفه علماء الطبيعـة جيمعا، يعترفون بأن منهج علم الطبـيعـة قد تغـير فى الأعـوام الأخيـرة، حيث لـم تعـد «المادة» تتركب من قطع صلـبة صغيـرة.. وقد عاد بالتـالى إلى نفس الفكرة التى كـان ينادى بهاجـيل الفـلاسفـة من أمـثال: بركلى ـ وهيـوم.. وليبنتز.. وكانت، وهيجل.

ويدلك بعض رجال التاريخ على تقـارب وحدة الموضوع بين الدين والعلم حين يرون أن الفلسفـة «التجريبـية» للقرن السابع عـشر، انما نشـأت فى جو نظام فلسـفى يتصل بما وراء الطبـيعـة،وأنه لولا هذا النظام لما وراءالطبيعة لما كان هناك تجريب، ولا كان علم.

(١) برتراند رسل، النظرة العلمية ٧٤
(٢) برتراند رسل: النظرة العلمية ١٠٨

إن التشابك قائم بالتأكيد بين «الموضوع» الذى يدرسه الدين والعلم، وليس هناك ما يحول دون أن تتجه اهتمامات هذا إلى ناحية أكثر من اهتمامات ذاك. كما أنه من المعقول أيضاً أن تختلف الأهداف المباشرة لكل من العاملين في الحقلين، وإن كان من المؤكد أن الأهداف الكبرى والنهائية واحدة.

أما المشكلةالكبرى ـ فى تصور بعضهم ـ فهى أن وسائل العلم فى إثبات حقائقه واختيارها مختلفة عن وسائل الدين.

وقد يكون هذا صحيحا بالنسبة لقضية واحدة يستقل بها الدين، ولا يقحم فيه العلم نفسه، وهى قضية اهتمام الدين بالكشف عن سر الكون كله والتعرف إلى خالقه، والتعامل معه معاملة تليق به من وحى ما حدده هو فى وحيه الدينى.

والحقيقة أننا لم نفهم إلى الآن: لماذا ينزعج العلم من أن الدين يرتاد حقلاَ.. يرى العلم نفسه عاجزاً عن ارتياده؟!! ونحن ننزعج أكثر من بعض من يتسمون بعلماء، ويرفضون كل مقولات الدين، مع أنهم لم يرتادوا منطقته كما ينبغى، وبالتالى نراهم يحكمون على مالم يبحثوا أو يعرفوا.

والقضية واضحة تماماً ولا تحتاج إلى أى لبس: فإن ما وصل إليه العلم من اكتشافات سواء فى عالم الكون أو الإنسان ـ إنما هو شىء خاص بالعلم، ولا ينفى ما يقول به الدين، ذلك لأن العلم ـ احتراماً منه لطاقاته المحدودة ـ لم يفسر لنا قضايا ما وراء الطبيعة ـ وكل القوانين التى اكتشفها العلم تفسيراً لحركة الأشياء لاتنفى ما يقول به

الدين، ففهمنا «لكتالوج» أى ماكينة، ولأسلوب عملها وتركيبها ـ وهو الدور الذى يقوم به العلم ـ لا علاقة له بما يقول به الدين من أن هنك صانعاً صنع هذه الماكينة، ووضع لها هذا القانون الذى تنتظم حركتها به.

وسواء اكتشف لنا نيوتن نظرية «الجاذبية» أو البرت أينشتاين نظرية «النسبية»التى ابتلعت نظرية الجاذبية فى أحشائها، أو اكتشف «لامارك» و«دارون» نظرية «النشوء والارتقاء»، التى قال بصورمنها العالم العربى ابن ماسكويه، عندما ذهب إلى أن الموجودات مراتب، وكل نوع من الموجودات يبدأ بالبساطة، ثم لا يزال يترقى ويتعقد،[1] سواء صح هذا أو ذاك، فهل ينفى هذا قول الدين إن للعالم صانعاً مثلما لكل شىء صانع، وإن هذا الصانع ـ أمام عظمة ما أبدعه ـ هو عظيم قدير محيط يستحق التبجيل والطاعة.

هل ينفى وجود مصنع عظيم مبنى على أسس علمية عظيمة أن وراء بنائه عقلاً عظيماً..؟؟ إن الطبيعة بكل قوانينها حقيقة من حقائق الكون، وليست تفسيراً له، وما يكتشف من قوانين ليست نفياً للصانع، بل هى ـ على أحسن احتمالاتها ـ إن صحت بصورة مطلقة ـ وهذا بعيد فى منهج العلم ـ ليست إلا بياناً لخلق الله: «إن العلم الحديث تفصيل لما يحدث، وليس بتفسير لهذا الأمر الواقع، فكل مضمون العلم هو إجابة عن السؤال».

«ما هذا» وليس لديه إجابة عن السؤال «ولكن لماذا؟» ويوضح

(١) نديم الجسر: قصة الإيمان ص٦٤ طبع بيروت

البروفسور «سيسل بايس هامان» ـ وهو أستاذ أمريكى فى البيولوجيا ـ هذه الحقيقة فى شرحه لقضية صيرورة الغذاء جزءاً من البدن عن طريق العناصر الكيماوية لتصبح تفاعلاً مفيداً.

فيقول: لو أنك سألت أى طبيب: ما السبب وراء احمرار الدم لأجاب:

ـ لأن فى هذه الخلايا مادة تسمى «الهيموجلوبين» وهى مادة تحدثها الحياة حين تختلط بالأوكسوجين فى القلب.. حسناً ولكن من أين تأتى هذه الخلايا التى تحمل «الهيموجلوبين»؟.. إنها تصنع فى الكبد ـ عجيب، ولكن كيف ترتبط هذه الأشياء الكثيرة من الدم والخلايا والكبد وغيرها بعضها ببعض ارتباطاً كلياً وتسير نحوأداء، واجبها المطلوب بهذه الدقة البالغة؟

ـ هذا ما نسميه بقانون الطبيعة ـ ولكن ما المراد بقانون الطبيعة يا سيدى الطبيب؟

ـ المراد بهذا القانون هو: الحركات الداخلية العمياء للقوى الطبيعية والكيماوية..؟

ولكن ماذا تهدف هذه القوى دائماً إلى نتيجة معلومة؟؟ وكيف تنتظم نشاطها حتى تطير الطيور فى الهواء ويعيش السمك فى الماء، ويوجد الإنسان على سطح الأرض بجميع ما لديه من الإمكانات والكفاءات العجيبة[١].

إن هذا ما لا يجيب عليه العلم. إنه يترك الإجابة للدين.. وإذا كنا

---

(١) وحيد الدين خان: الإسلام يتحدى: ٤١

نعتقد أن العلم قادر على استكناه الإجابة ـ فالعقل بالتالى يمكن أن يلتقى مع الوحى.

ويقول ابن طفيل فى ذلك على لسان بسكال فى قصة ـ حى بن يقظان ـ ويلتقى معه الفارابى وابن سينا فى قوله الذى يذكر فيه ما يلى:

«إن العقل يستطيع بما لديه من الأفكار الفطرية الأولى أن يدرك الحق فيما يتعلق بالمبادىء الأولى ويدرك منها وجود الله، وأما ما وراء ذلك من أسرارالوجود والخلق والخالق المحجوبة عنا بحجب الغيب فهو أعجز من أن يدرك كنهها وأحقيتها لأن الحواس لا تدرك غايات الأشياء.. ونحن نرى أن العقل قادر على إدراك القوانين واستنباط الكليات والوعى بالعلل ـ لو أنه تحرر من ضغوط المكابرة والعناد الإلحادى. «وما لايستطيعه هو: التفاصيل والجزئيات التى يأتى بها الدين» وتعتبر حقائق من الدرجة الثانية، ومن المفروض أن تقبل تبعاً للحقائق الكبرى، لارتباطها العضوى بها.

كما أن العقل ـ أيضاً ـ وإن كان قادراً على إدراك وجود الله، فهو عاجز عن إدراك «كنه الله» ولا أعتقد أنه من البحث العلمى فى شىء، الإصرار على البحث فى «كنه الله» لا لأنه «ليس كمثله شىء» ولا لأنه لا يدرك بالحواس وحسب بل لأنه لا يوجد عالم طبيعى يستطيع أن يعرف كل شىء عن حقيقة ذبابة واحدة وخواصها، فضلاً عن أن يعرف «كنه ذات الله» وهل يرجو الانسان

الذى لا يعرف المادة، ولا يعرف كيف يعرف، ولا يدرك كيف يدرك، أن يدرك حقيقة الله[1].

إننا ندرك أن وسائل العلم هى الحواس والملاحظة والتجربة، وأن وسائل الدين فى إثبات حقائقه تتعدى هذه الوسائل المحدودة إلى استغلال طاقات إنسانية أخرى لكن هل يصلح اختلاف الوسائل فى الوصول إلى الهدف مسوغاً لإحداث نزاع بين الدين والعلم؟.

ومع ذلك فنحن نزعم أن العلم ـ أيضاً ـ لم يكتف بالوسائل الحسية والتجريبية، وأن كثيراً من أساليبه هى أساليب غيبية وافتراضية واستنباطية أيضاً مثلما الحال فى منهج البحث الدينى.

وعندما نتناول «الفيزياء» ـ مثلا ـ فإننا نجد أن مفاهيمها الأولية قد استوجبت من واقع الخبرة، وفى حقيقة الأمر يبدو قولنا إنها «استوحيت» أقل من أن يعبر عن الواقع، ولم يكن يقصد فى الأصل بمصطلحات «الفيزياء» سوى تقديم أسماء افتراضية لصفات معينة مما يلاحظ فى العالم الخارجى.. وعلى سبيل المثال فإن «نيوتن» فى استخلاصه لمفهوم الكتلة قد رأى أنه أفرز شيئاً موضوعياً حقيقاً موجوداً فى العالم الخارجى وأعطاه تسميته، وقد اعتبرت خواص المادة الأخرى مثل الحجم والشكل والوضع والسرعة موجودات موضوعية محددة مع أنها مجرد رموز ذاتية لحقائق غير منظورة، أما فكرة «القوة» فقد كانت أشد غموضاً، ولقد اعتبرت كياناً نصف وهمى وأكثر تجريداً من المفاهيم القريبة

---

(١) نديم الجسر : قصة الايمان : ١٣١, ٢٠٥

مثل الكتلة والسرعـة، وما إليها، ولا يقل عنها غمـوضاً فكرة الطاقة الكامنة التى يكتسبـها الحجر عن الحركة أثناء سـقوطه ـ إنها قوة من الصـعب اكتـشـافهـا إلا عندمـا تتحـول إلى شكل آخـر من أشكال الطاقة.

إن جـارودى يشكو ـ عـندمـا كـان يسـارياً ـ من سـيطـرة المفـاهيم «الغيـبية» علـى علم الطبيعـة ويقول: لا نستـطيع أن ندرك بوضوح مـفهـوم الحـركـة إلا بطرد أشـباح القـوى المزعـومـة ـ الميكانيكيـة، الحرارية، الكيميائية، الكهربائية، المغناطيـسية، البيولوجية ـ فكل قوة من هذه القوى المزعومة ليست سوى حثالة لنزعة الغيبية «١».

ونحن لاندرى كـيف يمكن طرد هذه الأشـبـاح دون أن نسـقط بناء علم الطبـيعـة الحـديث.. وبتعـبيـرا آخـر هل يمكن أن يرفض العلم «الغيب» ويسقطه من حسابه كما يطالب جارودى؟؟.

لقد أجبنا عن ذلك فى حديثنا السابق حين تحدثنا عن المفاهيم الغيبية العـامة التى يعـتمد عـليها الـعلم فى بناء هياكل قـوانينه، ومع ذلك فنحن نزيد الأمر إيضاحاً ونتـساءل هل بمقدور العلم ان يخضع كل الظواهر الطبيـعـية لأسـاليبـه القاصـرة؟ هل يسـتطيع أن يخـضع الذبذبات الصوتـية الضـئيلة والأشعة مـا فوق البنفـسجيـة والضوء الألكترونى لأجهزته..؟

وحـتى إذا تمكن مـن إخـضـاع هذه فـثـمـة عـشــرات من الظواهر

---

(١) المادية بين الأزليـة والحـدوث ص٥٠ طبع القـاهرة (مـحـمـد حـسن ياسين)

ستنكشف له ولا يستطيع إخضاعها.. وسيظل العالم غارقاً فى الغيبيات إلى آخر المدي.. إنه يستخدم الكهرباء والالكترون والطاقة والأجهزة الالكترونية والموجة اللاسليكة، ولا يعرف كنه هذه الطاقة كلها"[1]" إنه فقط يعرف العلاقات والكميات والقوانين، ولكنه يجهل ماهية أى شىء..!!

ـ أجل..ماهية أى شىء.!!

لقد سقطت كل حجج اللادينيين والماديين ضد الدين موضوعاً ومنهج بحث، ولقد ظهر التقارب والتكامل واضحاً بين الدين والعلم فى المجالين فلم يبق إلا أن نقول: إن من الضرورى أن لا تكون المادة وعلاقتنا بها شيئاً تافهاً لا يستحق الوقوف عنده بالفكر طويلاً، كما لا ينبغى أن تكون هى الأمر الوحيد الذى نقف عنده غافلين عما وراءه من قيم ومثل يدركها العقل[2] إن الماديات هى أبجديات ومفردات وكلمات تنشأ عنها تجاربنا الحسية فنعرف الحقائق العقلية التى لولاها ما أدركنا شيئاً من الحقائق الروحية والقيم العليا التى وراء المادة، إنهما معاً ـ الماديات والحقائق العقلية العليا ـ هما طريق المعرفة الإنسانية الصحيحة.

أصل المشكلة بين الدين والعلم

- بصرف النظر عن أن أصل المشكلة قد يتركز فى بعض الرجال فى كلا الحقلين، هؤلاء الذين يفرضون إرادتهم الحديدية على حركة

(١) مصطفى محمود: لغز الحياة: ٩٥

(٢) خلاف: المادية الإسلامية ٦٠

المصدرين العظيمين للحياة الإنسانية خضوعاً لاعتبارات شخصية، أو لضيق أفق.. بصرف النظر عن هذا، فإن التاريخ يدلنا على أن الرحلة من فيثاغورس إلى كوبر نيكوس إلى برونو إلى جاليلو رحلة مليئة بالأسى والحسرة، بسبب خوف كنيسة العصور الوسطى على نفوذها وادعائها أنها وحدها مصدر العلم، مُغْلقَةً كلَّ منافذ العقل - هذه حقيقة تاريخية معروفة.

- لكن المشكلة مع ذلك عند بعضهم ليست فى رجال الدين وحدهم، فالبحث العلمى المحايد يثبت أن للمشكلة جانبين آخرين: جانباً فى الكتب المقدسة، فلم يعد مقبولاً أن تظل القيمة الدينية التاريخية للنصوص المنسوبة إلى الله اليوم بمعزل عن الدراسة التاريخية النقدية والعلمية لكى نثبت ما صدر عن الله، وننْفى ما أضيف من البشر، وذلك يوجب دراسة الظروف التاريخية والعامة التى سادت تحرير تلك النصوص، ولاسيما بعد أن أصبح نقد النصوص علماً، فقد كان له الفضل فى جْعلنا نكتشف مشاكل خطيرة، من متناقضات وأمور بعيدة عن التصديق، وكلها تظل باقية بلا حلّ، وإننا لنأسف مع «موريس بوكاى» لذلك الموقف الذين يهدف إلى تبرير الاحتفاظ فى نصوص التوراة والإنجيل ببعض المقاطع الباطلة خلافاً لكل منطق.. إن ذلك ـ بحق ـ موقف يسئ كثيراً إلى الإيمان بالله لدى بعض العقول المثقفة.[1]

---

(١) موريس بوكاى: دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة ١٠ طبع مصر

لكننـا هنا يجب أن نسـارع فنحـذِّر من العـجلة فى الحكم على النصوص.. فالتطور العلمى سريع ومتغير، وبالتالى فلا يعتمد من حقائق العلم إلا ما ثبت بشكل نهائى، لكن عندما نعرف أن أسفار العهد القديم قـد كتبت على مدى تسعة قرون، وأنهـا قد صححت وأكلمت أكثريتـها بسبب أحداث حدثت، وضرورات خـاصة، فإن لنا أن نخضع هذه الأسـفار لمنهج نقدى تاريخى وعلمى يوثق نسـبة نصوصـها إلى الله، وينفى الإضـافات الأدبيـة التى اتصلت بالنص الدينى..

- وقد أَحْسَنَ المجـمع المسكونى الفاتيكانى الذى أصدر وثيقـته بعد ثلاثة سنوات من المناقشـة (٦٢-١٩٦٥) حول اسفار العـهد القديم (التوراة) فقال: «بالنظر إلى الوضـع الإنسانى السابق على الخلاص الذى وضعه المسيح، تسمح أسفار العهد القديم للكل بمعرفة من هو الله ومن هو الإنسـان.. غـير أن هذه الـكتب تحتـوى على شـوائب وشئ من البطلان..

ويتـحـدث عن هـذا الأمل الأب (كـانيـجس) الأسـتـاذ بـالمعـهـد الكاثوليكى بباريس، فـيقول: (يكاد شعب المؤمنين ألا يـعرف بهذه الثورة التى حـدثت فى مناهج تفسـير التوراة.. إن هذه الثـورة تفتح الطريق بشكل يقل أو يكثر لا نقـلاب فى أرسخ رؤى تقليد الوعظ والإرشاد الكنسـيين.. إنه لم يعـد واجباً الأخـذ بحرفيـة الأحاديث الواردة عن المسيح فى الأناجيل فهى كتابات ظرفية أو خصامية»[١]

(١) المرجع السابق: ٦٠، ٦٨

- أما من ناحية ما تتضمنه أسفار التوراة والأناجيل من إشارات علمية فالذى يبدو لى أنها إشارات قليلة جداً وعامة، وأكثرها يتعلق بقضايا خلق الكون وأصله، ومراحل تكوينه، مما هو بعيد عن منطقة التحقيق العلمى، وكل ما ورد من معلومات يمكن أن يقوم على أساس مدى سلامتها من التناقض الداخلى، ومدى مطابقتها للمنطق والعقل، وما ثبت من معلومات تاريخية مؤكدة..

وعلى العكس من ذلك فإن القرآن تضمن إشارات علمية كثيرة بعضها لم يكن بإمكان القرون السابقة - قبل القرن العشرين - أن تفسرة وتعرفه وبعضها تنبؤات علمية تحققت، وبعضها أصبح فى حكم القانون العلمى كآية: ﴿ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴾[1]

ونحن لا نميل إلى التسرع فى التفسيرات الجزئية العلمية للآيات القرآنية على النحو الذى ذهب إليه بعض المعاصرين، إلا أننا نعتقد أن المنهج الذى التزم به الأستاذ «نديم الجسر» فى كتابه (قصة الإيمان) ومنهج وحيد الدين خان فى كتابه (الإسلام يتحدى) هو المنهج المقبول، لأنه المنهج الذى يبرز القوانين الطبيعية التى توشك أن تستقر قواعدها.

☆ ☆ ☆

- أما الجانب الآخر من القضية، ففى رأينا ورأى من نعرف من الدارسين المحايدين، أن النص القرآنى هو النص الوحيد الصادر

(١) النازعات: ٣٠

عن الله بألفاظه ومعانيه، والمحفوظ فى الصدور، والمكتوب أيضاً والمسجل - كما هو الآن - قبل وفاة النبى محمد المسئول عن تبليغ النص الإلهى بأمانة كاملة، ثم دُوِّن فى حدود العامين التاليين لوفاة النبى صلى الله عليه وسلم، وكان المسلمون جميعاً يتعبدون بتلاته فى الصلاة، وخلال العام وبخاصة فى رمضان، وهم جمع يستحيل تواطؤهم على تغيير النص أو التلاعب به، والجيل الذى تلقاه عن الرسول صلى الله عليه وسلم هو الجيل الذى نقله إلى الأجيال التالية نصاً واحداً برواية واحدة ولفظ واحد، فى ظل الإيمان الذى يؤمن به المسلم العادى جداً من أن أى تغيير فى كلمة قرآنية يعتبر كفراً صراحاً وخروجاً عن الإسلام، وبالتالى فقد توافر للنص القرآنى من الصحة ما جعل «موريس بوكاى» فى دراسته المقارنة للكتب المقدسة يقول: «إن صحة القرآن التى لا تقبل الجدل تعطى النص مكانة خاصة بين كتب التنزيل ولا يشترك مع نص القرآن فى هذه الصحة لا العهد القديم ولا العهد الجديد»[1]

وأياً كان الأمر فإن مشكلة الكتب المقدسة تمثل مشكلة يلزم دراستها دراسة علمية تاريخية وفق منهج النقد التاريخى، فضلاً عن ضرورة عرض الحقائق العلمية الواردة فى الكتب المقدسة على محك العقل والمنطق، وما يثبت نهائياً من قوانين العلم، وهذه إحدى جوانب مشكلة النزاع بين الدين والعلم.

☆ ☆ ☆

أما الجانب الآخر للمشكلة، فهو رجال العلم الذين ينطلق بعضهم

(١) المرجع السابق: ١٥١

من تصورات ثـابتة، وكأنهـا دين يدينون به، ولا يحيـدون عنه بدلاً، والحق أن برترانـد رسل وهكسلى مـن أبرز النمـاذج على ذلك، إذ على الرغم من وضوح الحـقائق العلمية يصـرون على صرف النظر عن قـضايا أسـاسـية أهمـهـا: غائيـة الكون، وتناسـقـه، والقضـايا الماورائية، ويرفـضون المعطيات الدينـية للقوانين العلمـية المكتشـفة، على أمل اكـتـشـاف قـوانين مـضـادة لأنهـم ـ ابتـداء ـ لا يريدون الاعترف بمبدأ خالق الكون مهما تكن الأدلة قوية وواضحة..

- إن هؤلاء ـ أيضـاً ـ وخلْفـهم كل الأيديولوجـيـين والعلمـانيـين اللائكيـين والماركسيـين ـ يصّرون على فـرض المذهب على المنهج، والتفـسير الواحدى على الواقـعة، وقد يخـترعون مائة حلٍّ خـيالى لكل مشكلة.. إلا أن يكون الحلُ صادراً عن الدين.!!

- إن هذا أيضاً موقف لا علمى، وهو بحّد ذاته مشكلة..!

لوحة الكون: تناسق وعقل:

سواء شئنا أم أبينا فـإن العالم من حولنا مجموعة هائلـة من التعميم والإبداع والتنظيم، ورغم استقلال بعضهـا عن بعض فإنها متشابكة متداخلـة وكل منها أكثر تعـقيداً فى كل ذرة من ذرات تركيـبها من المخ الالكترونى.(١)

إن ما يحـدث فى عالم النبات من تلـقيح بين ذكورة وأنوثة بعـيدة، ومن علاقات توافـقية اضطرارية أحيانـاً، ومن هرمونات تقوم بأداء

(١) الله يتجلى فى عصر العلم: مقال هاتاواى عن المبدع الأعظم

وظائف مختلفة، ليدلنا على أن عالم النبات يخضع لتفاعلات دقيقة وحركة منظمة وقوانين ثابتة.

إن جميع النباتات والحيوانات لم تخلق لكى تعيش فى بيئة ثابتة محددة الأوصاف، بل إن لديها من الاستعدادات ما يجعلها قادرة على مسايرة الأجواء والظروف الأخرى فى حالة الاضطرار ـ فمن الذى زوّدها بأدوات القدرة على التكيف؟!!

- ومنذ أكثر من مائة وعشرين سنة رتب العالم الروسى (مانداليف) العناصر الكيماوية تبعاً لتزايد أوزانها الذرية ترتيباً دورياً، فهل يمكن إرجاع ذلك إلى مجرد الصدفة، وقد تنبأ العلماء بفضل هذا الترتيب بوجود عناصر لم يكن البشر قد توصلوا إليها بعد.؟!

- وهذا الإنسان الذى لا يعدو فى البداية أن يكون بيضةً مثل بيضة الدجاجة، قطرها يتراوح بين جزء وجزأين من ٢٤٠ جزءاً من القيراط، ووزنها جزء من مليون جزء من الجرام وهى تتلاقح مع حيوان منوى ذكر صغير جداً بالنسبة إليها لأن طوله عبارة عن (٦٠ جزءاً من ألف جزء من المليمتر) وهو يتمتع بذكاء يسمح له أن يعبر إليها طريق الرحم الشاق، ويكون لنفسه رأساً مكوراً يستطيع به أن يخرق جدار البيضة الهائل بالنسبة إليه ويصنع (!!) نهراً من الماء يسبح فيه، مستخدماً حركة لولبية تساعده على اللحاق بالبويضة فى الوقت المناسب، وصانعاً بعنقه ذيلاً يساعده على السباحة فى بحر الرحم، وربط هذا الذيل ربطاً دقيقاً بأنشوطة يستطيع أن ينفك منها، إذا دخل إلى البويضة.

وعندما يلتقى بأنثاه يجدها قد أعدت له حفلة استقبال شخصية، وطردت شر طردة مائتى مليون من الحيوانات المنافسة كانت تسعى إليها، وفتحت له إلى قلبها باباً خاصاً يسمى باب الجاذبية، فإذا دخل أغلق الباب وعاشا معاً فى بيت الزوجية الذى يستعد كل شهر لاستقبال العروسين وإيوائهما وإطعامهما، فتنتفخ خلايا غشائه المخاطى، وتتّسع شعيراته الدموية، وتنشط الغدد!!

وتمضى الرحلة المشتركة بين الزوجين فى بيت الرحم المضياف يتبادلان الهدايا الوراثية وعناصر التخطيط النووى (الكرموزمات) و(الجينات)[1] حتى يعبرا رحلة أخرى طويلة فى اتحاد تام، وكل يوم من أيام هذه الرحلة حافل بإعجاز خاص.

- فإذا خرجا إلى العالم كانا إنساناً سوياً آخر، يحمل فى حيازه الدماغى والجسمى من آيات الإعجاز الإلهى ما يكفى وحده أقوى دليل لوجود رحلة اتساق وانسجام ونظام دقيق يسيرها إله مبدع لهذا الكون؟!! ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾[2]

- إن الكرة الأرضية ـ كجزء من الكون ـ تخضع لنسب مئوية معينة، وقد قسمها العلماء إلى أقسام دائمة، وحدَّدوا حجمها وسرعتها فيما يتعلق بمدارها حول الشمس ودورانها على محورها، وإذا وقع أى خلل فى حجمها أو سرعتها اختل نظامها كله [3]

(١) نديم الجسر: قصة الإيمان: ٣٨١
(٢) الذاريات: ٢١
(٣) كريس موريسون: العلم يدعو إلى الإيمان ص٥٤

- وتخضع كل الكواكب: عطارد، والزهرة، والمريخ، والقمر، لطبيعة خاصة ونظام خاص يحكم كلاً منها، بحيث يبدو كل منها وكأنه حبة فى عقد، وأضف إليها كل النجوم لتكتمل حبات العقد الجميل.

إن العناصر المبثوثة فى الكون من نتروجين وأيدروجين وأوكسوجين وكربون وغيرها مبثوثة بحساب دقيق ونسب فى غاية الدقة، وإن أى خلل فى نسب هذه العناصر كان من الممكن أن يشعل الكون بحريق لا تطفئه مياه المحيطات.

- وأىّ كون فسيح هذا؟

إن الضوء يقطع فى الثانية ١٨٦ ألف ميل، وفى السنة يقطع ستة ملايين مليون ميل (سنة ضوئية). ويبعد القمر عن الأرض، وهو أقرب الكواكب إليها ٢٤٠ ألف ميل تقريباً. أما الشمس فتبعد ٣٣ مليون ميل تقريباً. أما النسر الطائر فيبعد عنّا بنحو ٣٠ سنة ضوئية، والسماك الرامح يبعد عنا ٥٠ سنة ضوئية أى ٢٩٤ مليون ميل تقريباً. ووراء هذا نجوم تبعد عنا ألف سنة ضوئية، ووراء مجرتنا هذه سدم منها سديم (المرأة المسلسلة) الذى يبعد عنا مليون سنة ضوئية.[1]

وقد رأوا إلى الآن بآلاف التصوير نصف مليون سديم!!!

وصدق القرآن العظيم

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾[2]

أجل: أىّ كون فسيح ومنتظم ومنسجم هذا؟!!.

(١) نديم الجسر: قصة الإيمان: ٣٠٦
(٢) الواقعة: ٧٥، ٧٦

- إذا قدر للبشرية أن يسيطر عليها العلم المادى وحده، فإنها تكون قد أسلست قيادتها لذلك «المسيخ الدجال» الأعور الأعرج الذى يقودها إلي المادة الطاغية التي تدمر نفسها بنفسها.

- إن العلم نفسه يحتاج إلي حراسة الدين كيلا يزهق روحه في مستنقع الحسّ والتجسيد، محروماً من نسمات التجريد الرحبة العالية.

- إن مفكراً إسلامياً أوروبياً معاصراً قد أعلن تشاؤمه من مستقبل العلاقة بين الدين والعلم، وحذّرنا نحن المسلمين من التفاؤل الساذج بأن روح الحضارة الأوروبية المسيطرة، تقترب من العلم، وهو يرى أن العلم الحديث علي ماهو عليه ليس ميالاً ولا مستعداً لأن يقترب من الدين، إن العلْم قد يتطور إلى اللاأدرية الشمولية[1]. لكن اقترابه من الدين غير متطور في المدى القريب!!

- وفي كلام هذا المفكر الأوروبى كبير حق ما دامت قافلة التنصير الكنسي قد تخلت عن دورها الفعلى في الحضارة الأوروبية، وراحت تمشى مع الاستعمار، تبحث لها عن موقع هنا أو هناك باسم التنصْير في بلد إسلامى أو أفريقى، متجاهلة أن خسارتها لأوروبا إنما تعدّ خسارة لقضيتها الأساسية، بل إنه لمن المؤسف أن الكنيسة لا تقاوم الأديان الوثنية كالهندوسية والبوذية، ولا الأديان

---

(١) محمد أسد «ليوبولد فارسى»: الإسلام على مفترق الطرق ٦٣ بيروت

الوضعية، ولا تثير حملة عليها بقدر ما تبذل جهودها ضد الإسلام بالذات في آسيا الإسلامية وفي البلدان الإفريقية، وهي بذلك تضيف إلى تخطيطاتها المنحرفة بعداً آخر من أبعاد الخسارة، حيث تعوق هذه البلاد عن محاربة اللادينية، وتفرض عليها الانصراف إلي مقاومة الأخطار الكنسية التي كثيراً ما ترتبط بالدعم الأجنبى!!

- وأنه لمطلب عظيم حقاً أن نناشد إخواننا المسيحيين في العالم كله، بدءاً من الفاتيكان وانتهاء بالمسيحيين في الشرق، أن يغيروا من تخطيطاتهم، ويعيدوا النظر إلي خريطة العالم بفكر جديد يميز بين المواقع الدينية والمواقع اللادينية، وأن يتركوا المواقع الأخرى لعوامل الالتحام الفكرى الهادئ الممتد.

- ومع ذلك، فنحن متفائلون بالمستقبل، نحلم بأن الكنيسة تغيّر استراتيجيتها، بخاصة وأن الأخطار تحيط بها من كل جانب، وإذا كسبت موقعاً ثانوياً خسرت مواقع أساسية فى بلادها..

- اللهم إلا إذا كانت الكنيسة ترضى بهذه المبادئ الدينية الشكلية السائدة في عالم اليوم، والتى تسمح لبعض الكنائس بمباركة زواج الرجال بالرجال والنساء بالنساء!!

- لماذا لا نتفاءل وكثير من علماء الفيزياء والكيمياء والحياة والجيولوجيا والنفس بدأوا يدخلون المعركة في صفّ الدين، موجهين العلم إلى غاياته العليا ومحطمين بمنهج العلم كل استنتاجات الإلحاد الباطلة..!!

● وقد بدأت كتابات الإلحاد - على أساس العلم - تتعرض

لكساد، بينما أخذت في الرواج العالمى كتابات الإيمان على أساس العلم والعقل، وقد أصبحت النزعة العلمية فيها أقوى منهجاً وأكثر أصالة.

● وقد بدأ تبادل الخدمات ووسائل المساعدة يتم برواج شديد بين الدين والعلم، فكلاهما يأخذ من منهج الآخر ونتائجه، وكلاهما يعطي.

● وقد بدأ هؤلاء العاملون في حقول الدين والعلم يظهرون تواضعاً كبيراً فيما يتعلق بنتائج أبحاثهم، ويبدون ميلاً للإفادة والفهم الموضوعى لما توصل إليه الآخرون.

● إن روح العلم في طريقتها وجوهرها لا تعادى الدين، إنها روح عظيمة تستهدف إخضاع الظواهر للقوانين، أىْ إلى النظام، إلى الثبات في التعبير، إلي الترتيب، إلي المنطق، إلي العقل، إلى رؤية الأثر الواحد المتناسق الجميل.

● وإنه لأمر جدير بالالتفات أن ثمة قانونين أساسيين يكفيان في تفسير «الفيزيا» وهما الاحتفاظ بالدقة، ومبدأ أقل فعل، [1] فإذا كان العلم ينحو نحو الوحدة، ويجدها، فهل من التعسّف القول بأنه يتجه نحو الله الواحد؟!

(١) إميل بروتو: العلم والدين فى الفلسفة المعاصرة: ٢٠٦

الاجتهاد وسيلة لعقل المسلم لفقه الدنيا والدين

- أسلافنا اجتهدوا فى فقه الكون والحياة.
- اجتهاد العقل المسلم فى فقه الدنيا واكتشاف وسائل تسخيرها ـ فرض كفاية على مجموع الأمة.
- ضرورة وجود تشريعات ربانية فى عصور التعقيد والطغيان العقلى والمادى.
- منهج الاجتهاد فى أمور الدين.

ذكرنا ـ وأكدنا ـ غير مرة، أنه لا وحى بلا عقل، ولا عقل بلا وحى، وأن للوحى ثوابت ومقاصد وكليات وبعض التفصيلات الضرورية، وللعقل مساحة واسعة من الفروع الفقهية ومن المعاملات ومن فقه الكون والنظم التنفيذية الضابطة لحياة الإنسان، ومن تنسيق الحياة وتعميرها وِفْقَ الثوابت والضوابط الكلية التى شرعها الله!!

– وخلال مسيرة الإنسان قبل خمسة عشر قرناً كانت حاجاته بدائية وبسيطة وكانت الأديان تأتى لترسم للإنسان العقيدة الصحيحة التى تصله بالله وتجعله يقدر الله حق قدره ويعبده حق عبادته، كما كانت هذه الأديان أيضاً ترسم للإنسان الخطوط العامة الأخلاقية والنظمية التى تكفل له فى حدود مجتمعه البسيطة الحياة الكريمة، وما كان الناس عبر أكثر العصور فى حاجة إلى علوم دقيقة تضع القوانين الضابطة لحركة التجارة فى داخل الدول وخارجها، وتضع القوانين لكل المجالات الاقتصادية والاجتماعية المركبة والمعقدة على النحو الذى يعرفه الناس اليوم..

– ولربما كانت (دار الندوة) فى عهد (قصىّ بن كلاب) جدّ قريش

تقوم بما تقوم به وزارة العدل (الآن) فى محيط مكة المحدود.
- وكان (حلف الفضول) الذى تعاهد فيه أهل مكة على أن يُنْصفوا فى عاصمتهم العالمية المقدسة كل من يفد إليها ويتعرض للظلم أو العدوان، وربما كان هذا الحلف أقوى فى تأثيره من منظمات حقوق الإنسان، ومن قوافل الشرطة التى لا تكاد تنام إلا قليلاً!!
وإذا كان هذا جائزا على مشارف ظهور الدعوة الإسلامية، ورسولها محمد - صلى الله عليه وسلم - فكيف كان الأمر قبل ذلك فى عصر المسيح عليه السلام، الذى كان يقول للناس - بكل ودّ وحبّ - قبل ظهور عصر «المافيا» و«البلطْجة» (!!) - كلامه الطيب الرائع: «من ضربك على خّدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر، ومن أخذ قميصك فأعطه رداءك»!!
- فلما جاء الإسلام، كانت أمور الحياة فى طريقها إلى التعقيد وكانت الحضارة على وشك أن تقفز قفزة نوعية، وقد ساعدها الإسلام على ذلك كماً وكيفاً، ولهذا انّسجم أن يأتى الإسلام بضوابط كثيرة فى الشئون الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، حتى يمنع الإسلام الصراع بين الطبقات، وبين العقول، وبين الدول، وبين المرأة والرجل، والفرد والمجتمع، والأب والابن، والزوجة والزوج.
- ولم يَعُدْ ممكنا أن تترك ساحة الدنيا للعقل وحده، يجتهد فيها دون حماية الوحى، ويفهم «الحرية» - بالنسبة للدول أنْ تلتهم الدول القوية الدول الفقيرة والضعيفة بقوانين دولية ظالمة، وتفهم «الحرية»

ـ أيضا ـ بالنسبة للمرأة ـ أن تفعل فى جسدها ما تشاء، بل أن يتزوج الرجل الرجل، وأن تتزوج المرأة المرأة بعقود رسمية، وتباركها الجهات الرسْمية، وتدافع عنها مؤسسات حقوق الإنسان. [ولا ندرى أىّ إنسان حيوانى هذا (!!)]، وكما ضربت الشيوعية الأغنياء، وسحقتهم باسم حقوق المجتمع وحريته كذلك سحقت الرأسمالية الفقراء باسم حقوق الأغنياء وحريتهم!!

الاجتهاد فى فقه الدنيا

- لقد جاء الإسلام بقوانين تمنع هذا الصدام الحضارى الذى يروّج له أقطاب النظام العالمى الجديد الآن، زاعمين أنه حتمْية لابد منها، وأن عليهم أن يسحقوا العالم الثالث والمسلمين بخاصة، لأن هذا من سنن الحياة، فى رأيهم الكاذب الآثم المغلوط.

- وهذا المنحدر الذى يهوى إليه النظام العالمى المعاصر أكبر الأدلة على عظمة الإسلام وحاجة البشرية إلى عدله المطلق، وإلى مساواته العادلة بين كل الناس، مهما اختلف أديانهم وأجناسهم وأوطانهم.

- ولن يتحقق هذا فى ظل الخمود والتخلف، والكسل العقلى والتبعية الفكرية التى يعيشها أكثر المسلمين، بل لابدّ من أن يعمل (العقل المسلم) بأقصى طاقاته، فى ضوء ثوابته الإسلامية التى جاء بها الوحى الصحيح الكريم، وهذا العمل الذى سيعمله العقل المسلم بأقصى طاقاته هو ما نسمِّيه فى الاصطلاح: «الاجتهاد»!!

وقد يفهم بعضهم لأول وهلة الاجتهاد على أنه اجتهاد فى التشريعات الفقهية لكى يتابع الفقه وقائع الحياة، فيبصِّر الناس بما

هو حلال وما هو حرام، لكن هذا - فى الحقيقة - مجرد رافد واحد من روافد الاجتهاد، فالأصل أن يعمل العقل المسلم فى (فقه الكون)، لأن الكون هو كتاب الله المنظور، كما أن القرآن الكريم هو كتاب الله المسطور، وكلاهما يؤيد الآخر ويفسره.

* ونحن نعّد كل المبدعين فى شتى العلوم النافعة التى يحلو لبعضهم أن يسميها العلوم الدنيوية - نعّد هؤلاء المبدعين مجتهدين، لهم ثواب المجتهدين فى العلوم الشرعية، لأنهم يحققون الاجتهاد فى الكون كتاب الله المنظور ويقدمون من حيث أرادوا أو لم يريدوا خدمةً لتفسير كتاب الله المسطور وفقهه أحسن الفقه.

- بل نحن نرى من هذا أن الاجتهاد فى عصرنا يجب أن يكون اجتهاداً يضم المبدعين فى كثير من العلوم، شرعية كانت أو فلكية أو طبيعية أو كيميائية أو طبّية أو هندسية.

- أنه لضرورى أن يفتح الباب الاجتهاد للجميع فى ضوء تكاملية المعرفة وتعقّدها، وأيضا نرى ذلك ضرورة لابقاء الناس فى حظيرة الإيمان بالدين، بعد أن وجدنا البشرية تنحدر فى ظل الابداع الأوروبى الذى انطلق بعيدا عن الوحى والدين.. مؤمنا بالعقل وحده والمادة وحدها.

- ويعُد الاجتهاد فى العلوم الشرعية - فى هذه الحالة - بمثابة الأرْضية التى تقف عليها الاجتهادات الأخرى، وبمثابة الضمانات والضوابط التى تحمى الإبداع البشرى من الانتحار والسقوط وتجعل منجزاته فى خدمة الحياة والإنسان ومنهج الله.

وخلال القرون التى تلت ظهور الإسلام فهم المسلمون الاجتهاد بهذا المعنى الشمولى الواسع، وانطلقوا ينشرون الدين والعلم معاً فى أرجاء المعمورة، ويجتهدون فى فقه الكون والدنيا مؤمنين بأنهم يقومون بفرض شرعى يسمى فرض الكفاية، وبأنهم يحققون المعنى الحقيقى لقوله تعالى: «وما خلقت الجنّ والإنس إلا ليعبدون».

- لقد فتح القرآن المجال واسعاً أمام العقل العربى والمسلم كى يتزود بالعلوم والمعارف النافعة كلها، وكان للآيات وللأحاديث النبوية التى تحضّ على العلم وتجعله عبادة متأرجحة بين فرض العين تارة، وفرض الكفاية تارة أخرى، ونافلة تارة ثالثة.. كان لهذه النصوص والأحكام أثرها فى إقبال المسلمين على كل العلوم النافعة، وأصبحت كل علوم المعاش الدنيوية علوماً للمعاد الأخروى، كما أصبحت كل علوم العقيدة والشريعة والعبادات (علوم المعاد) علوماً تقود الدنيا وتزكيها وتحقق إنسانية الإنسان فى إطار منهج الله القويم، وأصبح الطب وعلوم الفلك والفيزياء وغيرها من العلوم العملية والعقلية تدرّس فى المساجد الكبرى جنباً إلى جنب مع علوم العقيدة الشريعة، بل أصبح العالم المسلم متفوقاً فى التفسير والتاريخ والفلسفة والطب واللغة فى آن واحد.

ولأول مرة فى التاريخ يأتى دين سماوى ليعمق المكانة السامية للإنسان وللعقل البشرى، وفى الوقت نفسه يجعل الكون كله والحياة كلها موضوعات للبحث العلمى، ومن حق الإنسان بل من واجبه اكتشاف قوانينها وتسخيرها لنفعه، وعبادة لله أيضا، وبعد أن

كان السائد فى بقاع كثيرة من العالم الخضوع للظواهر الطبيعية والخوف منها، بل وعبادتها خضوعا لهذا الخوف واتقاءً لشرها أو جلبا لنفعها... جاء الإسلام يعلم المسلمين والإنسانية أنّ الإنسان هو الأقوى والأزكى، وأن الكون كله بما فيه من قوى مرئية وغير مرئية مادة موضوعة للبحث تحت عقل الإنسان وليس - بالتالى - كوناً مخيفاً للإنسان، بل هو خلقٌ من خلق الله وقد فضّل اللّهُ الإنسان على كل المخلوقات واستخلفه فى عمارة الأرض باسمه تعالى، وقد أعطى القرآن - وهو كتاب الإسلام - مفايح علمية كثيرة تقود هدى الإنسان للبحث والاكتشاف، وهى مفاتيح عامة وإجمالية تحرك العقل البشرى ولا تكبله برؤية معينة تمنعه من البحث العلمى المحايد، ولذلك فهى مفاتيح خالية من التفضيلات، وتمثل قوانين كلية تزوِّد الباحثين فى العلوم الكونية والاجتماعية بشارات ومعالم تدفعهم إلى الطريق الصحيح للبحث الهادف البنّاء.

ومما أورده صاحب المنار فى المجلد الرابع عشر من مجلة المنار، ما نقله عن الرحالة المسلم السيد محمود سالم فى مقال له جاء فيه على لسان السيد سالم:

«قصدت فى سياحاتى مدينة (بونتارليه) لمقابلة الدكتور «جدنيبة» المسلم الفرنساوى الشهير، الذى كان فى السابق عضواً فى مجلس النواب، قابلته لأجل أن أسأله عن موضوع إسلامه.

فقال: إنما تتبعت كل الآيات القرآنية، التى لها ارتباط بالعلوم الطبية

والصحية والطبيعية، والتى درستها من صغرى، وأعلمها جيداً، فوجدت هذه الآيات منطبقة كل الانطباق على معارفنا الحديثة، فأسلمت لأنى تيقنت أن محمدا صلى الله عليه وسلم، أتى بالحق الصراح من قبل ألف سنة، من قبل أن يكون معلم، أو مدرس من البشر، ولو أن كل صاحب فن من الفنون، أو علم من العلوم، قارن كل الآيات القرآنية المرتبطة بما تعلم جيداً، كما قارنتُ أنا.. لأسْلم بلاشك، إن كان عاقلاً خالياً من الأغراض».

☆ ☆ ☆

إن «الخوارزمى» هو إمام الرياضيات لقرون طويلة، وهو مبتكر اللوغاريتمات وعلم الجبر.. أما «الكندى» فهو الذى كان الوسيلة لمعرفة حساب التكامل والتفاضل، و«ثابت بن قرة» أدخل تعديلات جوهرية على فيثاغورث، و«البتانى» أول من أوجد جداول فلكية دقيقة، وبجهوده وجهود أبى الوفا تطورت علوم الهندسة كالتفاضل والتكامل وحساب المثلثات.

- أما «ابن الهيثم» فهو إمام علم البصريات، ويرى بعضهم أنه بدون ابن الهيثم كان صعباً ظهور بعض إبداعات التكنولوجيا الحديثة التى ساعدت فى علوم الفضاء، وكان مؤلفه المشهور (كتاب المناظر) كتابا عالميا بيقين فى علوم الفلك وطبقات الجو.

وكان لابن سينا فى العلوم الطبيعية والطب بخاصة مكانة لا تنكر ويُعّد كتاباه: (الشفاء) و«القانون فى الطب) من الكتب ذات التأثير الإنسانى العام.

- ويقف ابن خلدون وحده رائداً لعلمى الاجتماع (العمران) وفلسفة التاريخ، وعلى الرغم من أنّ عبدالرحمن بن خلدون (ت ٨٠٨) مسبوق ببعض من اقتربوا من هذين المجالين فى الحضارة الإسلامية مثل ابن حزم الأندلسى (ت ٤٥٦هـ) وغيره - إلاّ أنه - أى ابن خلدون يقف وحده قمة سامقة، يضعه رجل فى قامة «أرنولد توينبى» فى مصاف أرسطو وأفلاطون بل وسقراط، ولا يجوز أن يقارن ابن خلدون فى (رأى توينبى) بأى مستوى آخر...!!

☆ ☆ ☆

لقد كانت الحضارة الإسلامية والعربية هى الحضارة العالمية التى تسود العالم لنحو عشرة قرون، وكانت أوربا توفد أبناءها ليتعلموا فى الحواضر الإسلامية والعربية علوم الفلسفة والأدب والطبيعيات، وقد كانت «قرطبة» - العاصمة الأندلسية - كما يصفها فيليب حتى - بحق - «جوهرة العالم).. وحتى فى الفاتيكان تتلمذ كثير منهم فى الحواضر الأندلسية.. ويضاف إلى الحواضر الإسلامية الكبرى ذات الاشعاع العالمى مثل قرطبة وإشبيلية وبغداد ودمشق والقاهرة وبجاية والقيروان ولاهور - أن اللغة العربية كانت هى لغة العلوم واللغة العالمية لكل مثقفى العالم. وقد حققت انتشاراً عالمياً كاسحاً جعل الكاتب الأسبانى (الفارو) يأسف أشدّ الأسف ويقول فى رسالة له: «إنّ أرباب الفطنة والتذوق سحرهم رنين الأدب العرب فأحتقروا اللاتينية وجعلوايكتبون بلغة قاهريهم دون غيرها»...

ويقول كـاتب أوربي آخر مـتحسـراً: «إن لغة العـرب ما أكـثرالذين يحسنون التـعبيـر بها على أحسن أسلوب، وقـد ينظمون بها شـعرا يفوق شـعر العـرب أنفسـهم بالأناقة وصـحة الأداء[1].. وكان من نتيجة هذه الهيمنة للغة العربية أن انتشرت مصطلحات علمية عربية كثـيرة في اللغـات الأوروبية، وهي مصطلحـات كتبـت فيهـا كتب كـاملة ومن الصعب حـصرها، ومنهـا الكلمـات الدالة على القطن Cotton أو الحـرير الغـزيMUSLIN أو على الحـريـر الموصلي Gause أو الجلد القرطبي Damas أو الحرير الدمـشقي Corde-van أو المسكJupe أو الجـبــة Morocco أو الجلد المراكــشي Musk أو الشراب Saffron أو الزعفران Attard أو العطر Syr-up أو الأرزSofa أو الصـفّـة بمعنى المقـعـد الطويل Jar أو الجرة Rice أوLemon أو الليـمون Orange أو البـرتقال من التـاريخ السكر Sugar أو القهوة Coffee.

والمصطلحــات التي بلغت في هـذا العلم وحـده عـدة مـئـات من المفـردات ذات الأصل العربي، ومنهـا كلمات مـثل الطرف Arta-ref، Arnab، والأرنب Caph، والكف Cursa، وكرسي الجوزاء والعرقوب Arkab، والسمت Azimuth، وآدص النعام Azha،

(١) عـبـاس العـقـاد أثر العـرب في الحـضـارة الأوروبـيـة ص٧٠ ط ٤ دار المعارف مصر

والبطين Botein، وزبانتى العقوب Zuben Hakyabi، والوزن Wezn، والسيف Saros، والساهور Wega، والنسر الواقع Saif، ورجل Sadalsud، وسعد السعود Sadr، وصدر الدجاجة الجبار Rigel، والذوق Zaurek، وقرن الثور Tauri، والراعى Errai والذنب Denob.. وأمثال هذه الأسماء المحفوظة بألفاظها كثير غير ما ترجموه بالمعانى دون الألفاظ(1).

☆ ☆ ☆

- وكانت الترجمة من أكبر عوامل التفاعل الحضارى..
- ومن أشهر من قاموا بالترجمة من العربية إلى اللاتينية من العلماء الأسبان:
- جون (يوحنا) الإشبيلى حوالى ١١٥١م،وإبراهام بارهيبا ١١٥٠م، ومارك الطليطلى ١٢٠٠م، ويهودا بن طبون ١١٨٠م، واسطفن السرقسطى ١٢٣٠م، وبينز كاليكو ١٢٣٠ وساليو البادوى ١٢٤٠، وابن حسداى ت ١٢٤٠م، هو مائيل بن طبون حوالى ١٢٠٠م.(2)
ومن العلماء الإنجليز: «إيديلا داوف باث» (١١٤٢م)، ودوبرت الجسترى (١١٥٠م) وألفريد السارشيلى حوالى (١٢٠٠م)، وروبرت الإنجليزى حوالى ١٢٧٠م.

---

(1) عباس محمود العقاد - أثر العرب فى الحضارة الأوروبية ص٦٠ - ٦١
(2) انظر مايزر: يوجين، ترجمة كاظم سعد الدين. الفكر العربى والعالم الغربى ص٩٥ - ١١٤

ومن العلماء الايطاليين: أرنولد الفيلانوفى حوالى (١٢٦٠م)، وجيوفانى كامبانوس حوالى (١٢٦٠م)، ويوحنا البريسجى حوالى (١٢٦٣م)، وأفلاطون التيفولى (١١٥٠م)، واصطفن الانطاكى (١١٢٨م)، وليم اللونسى حوالى (١٢٣٠م) وفى الترجمة من العربية إلى الأسبانية كان هناك كثيرون من أشهرهم: الفونس الحكيم العاشر، ويهودا بن موسى، وصموئيل ماليفى أبو لافيه، اسحاق بن أسيد، وإبراهيم الطليطلى، ودينيس (ملك البرتغال الذى ترجمت له كتب كثيرة من الأسبانية واللاتينية والعربية إلى البرتغالية)[1].

ومن الأسبان والفرنسيين من تخصصوا فى الترجمة من العربية إلى العبرية ومن أشهرهم: سليمان بن أيوب، وشطوب بن اسحاق، وزراحيا كرشيان، وموسى بن طوبون (١٢٤٠ - ١٢٨٣ فرنسى) ويعقوب بن ماهر بن طبون (فرنسى) فالويبموس بن ثالو نيموس (فرنسى)، وصموئيل يهودا المارسيلى، وتدرس التادرسى (فرنسى) وسليمان بن باطر (فشتالى) واسحاق بن ناثان القطربى (أسبانى).

ومن الايطاليين قام ناثان هاميتى أيضا بالترجمة من العربية إلى العبرية والسمو آل ابن يعقود الكابوى، وسليمان يونابراك، وسمو آل بن سليمان هاميتى[2]، وغيرهم.

☆ ☆ ☆

وقد بقى المسلمون يفتحون العالم بالدين والعلم معاً، وما شعروا

---

(١) انظر مايزر: المرجع السابق ١١٤ - ١٢٥

(٢) مايزر: الفكر العربى والعالم الغربى ١١٤ - ١١٨

قطّ بأن هناك انفصالاً بين الجانبين، كما أنه لا انفصال بين الروح والعقل والجسد.. وكان المسجد يعلم المسلمين علوم الدين والدنيا معا، وكان العلم المسلم يجمع بين الطب والفقه، ويبرز فى التفسير والتاريخ والفلسفة، ويكتب موسوعات فى تفسير القرآن وتاريخ الإسلام ومقارنة الأديان، وقديكون أديبا وشاعرا وفيلسوفا، وهو فى كل ذلك مؤمن بأن اجتهاده فى أمور الدنيا واجب يدعم الاجتهاد فى أمور الدين، ويقويه ولا يناقضه!! فلما مضت عشرة قرون تقريبا وهى مدة هيمنة الحضارة الإسلامية على العالم بدأ المسلمون ينامون وظهرت بينهم مفاهيم مغلوطة تدعوهم إلى ترك الدنيا وهجر العلم والانكفاء على ما يسمى بعلوم الدين والاكتفاء بها وتْرك علوم الدنيا للآخرين، يسخرون الكون، ويفلسفون الفكر، وأصبحت كثير من العلوم التى قادت المسلمين إلى النهضة هى - بعينها - علوماً تقود إلى تبديد الطاقات وتعطيل الملكات واجترار الخلافات فأصبح علم (العقيدة) الجميلة الصافية (علم كلام) تدور الحروب فيه بين فرق كل منها يزعم أنه الفرقة الإسلامية الناجية، وأصبح (الفقه) ترفاً وتعصباً للمذهبية، وتعطيلا للعقل والاجتهاد، وفقد (تفسير القرآن) طعمه، وأصبح معارك لغوية وصراعات مذهبية، كل يحاول أن يلوى النصوص لينصر مذهبه ورأيه، وغلبت الجزئية والفرعية على العقل المسلم، وفقدت الفلسفة مجالها الصحيح وهو مجال الكون والعلوم (الفيزيقا) واشتغلت (بالميتافيزيقا) والجدال حول صفات الله، والمناطق الغيبية التى يجب

أن تترك للوحى وحده لأنها فوق العقل، بينما أهملت فلسفة علوم الكون والحياة والإنسان مع أنها هى الفلسفة المطلوبة، بل بدونها لا يتقدم العلم، إذْ هى الوصول بالعلم إلى مرحلة الفرضيات والقوانين والتعميم.. فثمة - بالتالى - فلسفة للطبيعة، وأخرى للطب، وثالثة للاجتماع، ورابعة للتاريخ، وعن طريق الفلسفة الكونية والاجتماعية تقدمت أوربا، وعن طريق الجزئية والحرفية والفرعية الذّرية تأخر العالم الإسلامى..

أما الفلسفة المرفوضة فهى التفلسف فى ذات الله، وهى منطقة سمعية لا يقوى العقل على التفلسف فيها... وهى لم تكن قد قط المجال الأكبر عند فلاسفة الإسلام - بصفةعامة - بل إن أكثرهم دافع عن ذات الله بأدلة الاختراع والإبداع، بل ونقض المناهج اليونانية أفلاطونية أو أرسطية!!

- صحيح أننا كنا نتمنى أن لا ينبهر بعض فلاسفة الإسلام بأرسطو وأفلاطون، وأن ينطلقوا من (الفلسفة القرآنية) - ككتاب وحى صحيح وحيد - و«الفلسفة الكونية» كمجال إبداع ونواميس إلهية مؤكدة لكتاب الوحى!!

- لكن منهج الإدانة بالجملة - كما يشيع بعض المسلمين اليوم للأشخاص وليس للأفكار، وبأسلوب التكفير والتأثيم، وليس بأسلوب النقد العلمى والمنهجى الهادىء - هو المنهج الذى نرفضه ونحاربه.. - ولم لايكون لهؤلاء الفلاسفة بعض العُذْر..؟!

- أليس من المحتمل أن يكون (المخطىء الأكبر) فى هذه القضية هو

الخليفة العباسىُ (المأمون)، لأنه فتح باب ترجمة الفلسفات إلى العربية، ولم يقم بجهد مواز لفتح باب الترجمة من العربية إلى اللغات الأخرى لتقديم العقائد الإسلامية بطريقة إسلامية للبشرية المنكوبة بالفلسفة الاغريقية المركّبة تارة والساذجة تارة أخرى!!

- وقد وجد الفلاسفةُ المسلمون أنفسهم أمام واقع فرضه هذا الخطأ الذى ارتكبه الخليفة المأمون... ولم يكن أمامهم إلا أن يفهموا الخصم، وأن يترجموا فكرة، ويشرِّحوه ويحللّوه، ويبيِّنوا عواره، ويردّوا عليه، ويقدموا البديل الإسلامى بطريقة عقلية (فلسفية ملائمة للمناهج الزاحفة..

- أجل هذه هى الحقيقة.. وهذا هو عذرهم وقد أصابوا وأخطأوا.. لكن كما يصيب ويخطىء كل الباحثين والفلاسفة!!

- وليس فى الأمر لا كفر ولاإثم.. بل هناك أجرٌ للمخطىء، وأجران للمصيب، ورفضٌ للفكرة الخاطئة، وقبول للفكرة الصائبة، حتى ولو كانت الفكرة - عن غير عمد - توصل إلى الكفر.. فهى فكرة جاهلية كافرة.. أمَّا صاحبها فليس كافراً... وَحَسْبُ صاحبها أن يكون قد استغفر اللَّه فى أىّ يوم من أيام عُمره التالية أو نطق بالشهادتين!!

ومعظم المسلمين - فلاسفة وعامة - قد يتكلمون كُفْراً عن غير وعى فى كل يوم.. ثم تأتى الصلوات.. أو الاستغفار فيمسح الكفر.. ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾(1)

---

(1) يوسف ١٠٦

فهكذا جمع القرآن بين الإيمان والشرك، وقد قال الرسول عليه الصلاة والسلام لأبى ذرّ رضى الله عنه: «إنك امرؤ فيك جاهلية»[1].. ولم يكن أبو ذر رضى الله عنه - فى أى يوم كافراً!!

- ولماذا يتشبّث هؤلاء بتكفير - أو تأثيم هؤلاء الفلاسفة مادام فى الأمر مندوحة لالتماس عذر، أو التحقق من وجود نسبة ايمانية تمنع الكفر..؟

ولماذا لا ننظر ابتداء بعين التبرئة.. بدل الإصرار على التجريم.. تكفيراً أو تأثيماً..؟

☆ ☆ ☆

لقد أُعْجبْتُ - أشدّ الإعجاب بهذا المنحى الفكرى الذى انتهجه الفقيه والداعية العظيم الشيخ (نديم الجسر - مفتى طرابلس - لبنان الأسبق رحمه الله) وهو يعالج من خلال كتابه العظيم (قصّة الإيمان) رحلة العقل إلى الإيمان بالـلّه من خلال الفلسفة والعلم.. ثم القرآن..

وكيف تطابقت الفلسفة الحقة والعلم الصحيح مع كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل..

وكان الكتاب منقذا لعقلى وضميرى فى مواجهة موجات الحقد التى تنهال على موكب المفكرين والفلاسفة المسلمين دون تقدير لظروفهم والتحديات التى واجهوها، وأنا لا أقصد من ذلك أن نحابى على حساب الحقيقة الإسلامية وأن لا نصوب الخطأ بالحكمة

(١) رواه البخارى فى كتابى الإيمان والأدب

والعلم والكلمة الرقيقة الودود.. حتى ولو كان اختلافنا مع هؤلاء الفلاسفة منهجيا فلا محاباة ولا خلاف فى التصويب والحوار، وإنما الخلاف فى الأسلوب الجارح وفى منهج التفكير والإدانة الكاملة التى تكشف عن حقد مسبق وكراهية عمياء!!

كان الشيخ الجسر - رحمه الله - طيلة كتابه يبحث عن زهور الإيمان، فيعلى من قدرها ويشيع عطرها ويقتلع أشواك الكفر ويكشف انحرافها.. حتى لدى الفلاسفة غير المسلمين.. فقضية الإيمان قضية الإنسانية عامة..!!

ـ أنصت إلى الشيخ الجسر، وهو يدفع عن «الرازى» و«الفارابى» و«ابن سينا» تهمة.. ضعف الإيمان التى يتساءل عنها تلميذه ومحاوره «حيران بن الأضعف».

ـ إنَّ الشيخ ينفى التهمة.. ويجيب تلميذه ومحاوره قائلاً: «معاذ الله يا حيران، إنهم من أعظم المؤمنين بالله، ومن أصدقهم برهانا على وجود الله، وكيف لا يكونون كذلك، وهم كغيرهم من فلاسفة المسلمين، قد جمعوا إلى إيمان الوحى الصادق، إيمان العقل السليم، نوراً على نور، ولكن هؤلاء أخذوا بنرهان الأفلاطونية الحديثة وخيالاتها فى مراتب الخلق ووسائطه، واختلط عليهم الأمر فحسبوها من كلام أى سطو وحال إجلالهم للمعلم الأول، دون تمحيضها، لذلك كان على من يكتب عن هؤلاء أن يمحص أقوالهم ويميز بين ما فيها من الحق النير، والباطل المظلم، وهذا ما لم يفعله الذين كتبوا عنهم، إما عجزاً عن التميز، أو زهدا فى نصرة الإيمان، أو كيدا للإيمان.«١»

---

(١) الشيخ نديم الجسر: قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن ص٥٧ الطبعة الثالثة: منشورات المكتب الإسلامى لبنان.

ويتابع الرجل حديثه بشيء في التفصيل عن كل فيلسوف من هؤلاء الفلاسفة.. إنه يقول عن الرازي:

«فالرازي من أصدق المؤمنين، ولم لم يكن لدينا دليل على صدق إيمانه إلا قوله «إنّ وجود العقل في بعض الكائنات الحية وقدّرتها على اتقان الصنعة يدل على وجود خالق أحسن كل شيء خلقه» لكفانا «[1]» .

ـ أما عن «الفارابي» فيُتصل الشيخ الجسر الحديث عنه لتلميذه حيران.. قائلا:

«الفارابي» يا حيران، من أعظم الفلاسفة المؤمنين، وأصحِّهم منطقا، وأصدقهم برهانا على وجود الله، فقد بدأ بالدفاع عن العقل. فأثبت له أحكامه الأولية البدهية، التي تعتمد عليها البراهين كلها، واتخذ، من هذا، طريقه إلى إثبات وجود اللّه، ومازالت أقواله، في المعرفة والوجود، تتحكم في عقول العلماء والفلاسفة والمتكلمين، إلى يومنا هذا الذى نحن فيه[2]

- ويأتي الحديث عن (ابن سينا) مفصّلا أيضاً - بل أكثر تفصيلاً - لأن ابن سينا يلقي هجوماً أكثر من غيره..

يقول الشيخ الجسر عنه لتلميذه حيران!

- «إن ابن سينا من أعظم الفلاسفة المؤمنين، وهو أشبه الناس بأستاذه الفارابي، سمواً، واتزاناً، عند البحث في (المعرفة والوجود)،

---

(١) الشيخ نديم الجسر: قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن ص٥٨.
(٢) المصدر السابق

وإسفافاً عند الكلام في مراتب الصدور، والعقول، والأفلاك [1]».

- والشيخ الجسر - كما نرى من النصّ السابق - مع إثباته أنّ ابن سينا من أعظم الفلاسفة المؤمنين - لم يجامل ابن سينا في أخطائه بل قدح فيما يستحق القدح.. وإن كان مع ذلك.. برّأ ابن سينا من تهمة تبعيته لأرسطو تبعية عمياء كما ينظن بعضهم...

فيقول! «إن ظاهر كلام ابن سينا يدلّ على أنه يُجاريه.. ولكنّى أفهم، من باطن كلامه، أنه يخرج عن كلام أرسطو، ويفسّر معني القدم تفسيرا بديعاً، يدل علي بعد نظره، وسلامة تفكيره، وصدق إيمانه[2]»

- فمع إسفاف ابن سينا عند كلامه عن مراتب الصدور، والعقول والأفلاك - إلا أنه اجتهد فأخطأ، ولم يخرج عن دائرة صدق الإيمان!!

- وعن (ابن مسكويه) يقول الشيخ الجسر لتلميذه: «إن لابن مسكويه، في فلسفة الأخلاق والمعرفة والوجود، كلاماً لا يقل سمواً، وبيانا عما جاء به أعظم الفلاسفة[3]» ويدافع عن بعض الشبه التي نسبت إلي فلسفة ابن مسكويه وآرائه فيقول:

- «هذا ما أراني أفهمه من كلام ابن مسكويه، وإني به لفرح وفخور، لأنه يؤيد الرأى القاطع، الذى أرشدت إليه، ثم خبرته

(١) الشيخ نديم الجسر: قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآ ص٦٠
(٢) الشيخ نديم الجسر: قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن ص٦٢
(٣) الشيخ نديم الجسر: قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن ص٦٣

بنفسي، بعد حياة طويلة وتأمل عميق، وهو أنّ نتاج الفلسفة الصحيح لا يتنافى أبداً مع الدين الحق، في إثبات وجود الله ووحدانيته، بل يؤيد هذا الإثبات الذى جاء به الوحي بالنظر العقلي الخالص[1]»

- ويتابع الشيخ رحلتهُ الباحثة عن زهور الإيمان في حديقة الفلسفة الإسلامية.. فيفسر الخصومة المعروفة بين أبى حامد الغزالى وابن رشد حول تهافت الفلاسفة، ويدافع عن ابن رشد أعظم دفاع ويصفه بأعظم النعوت، يقول الشيخ الجسر لتلميذه: «إنها خصومة المؤمنين ياحيران»

حيران - ماذا يريد مولاى بخصومة المؤمنين؟

الشيخ - إن ابن رشد يتفق مع الغزالي في جميع آرائه عن الوجود والخلق والخالق.

- حيران - كيف ذلك وأنا أسمع أيضا أن ابن رشد، هو عدوّ الغزالي وناقده ومخالفه في كل آرائه، حتى أنه وضع فى نقده كتابه المشهور (تهافت التهافت) وأسمع أيضا أن ابن رشد كان من القائلين بقدم العالم، وبإنكار الروح والعقل والشخصية الإنسانية، ولهذا اتّهم بضعف الإيمان، ونكب في هذا السبيل نكبة كبرى.

الشيخ - إنّ ابن رشد عالم من أعظم علماء الدين، وفيلسوف مفكر من أصدق الفلاسفة المؤمنين، فكن علي يقين من هذا، وإياك أن تأخذ أو تؤخذ بما اتّهمه به بعض رجال اللاهوت، أو علماء الكلام،

(١) الشيخ نديم الجسر: قصة الإيمان بين الفلاسفة والعلم والقرآن ص٦٥

أو بما أذيع عنه بين العامة من سوء القالة، فكلّهم قد أخطأوا في فهم هذا المفكر العبقرى المؤمن[1]

- ويتابع الشيخ حـديثه الودود العميق عن ابن رشد فيـقول لتلميذه حيران:

- لو رجعت إلى أقوال ابن رشد في كـتبه التي بين أيدينا لرأيت أنه لم ينكر البـعث أبداً، بـل آمن به وصـدقه، ووصف الـذين ينكرونه (بالزنادقة) وإنما كان جـداله مع الغزالى فى صورة البعث وكيـفيته، فقال إن النشأة الأخرى تكون بخلق جديد للجسم، وهذا لا يخالف الدين فى شئ، أمـا النفس، فقد صـرح ابن رشد، بعـد الأخذ والرد مع الغزالى بغموض أمرها[2]

- ويأتى الحديث عن (أبى العلاء المعرّى) المتهم عند بعض النصارى والمسلمين، فيقول الشيخ الجسر لتلميذه:

إنّ المعرّى قـد شك فى كل شئ.. إلا فى أمر واحـد، لم يتطرق إلى عقله الشك فيه أبداً، وهو وجود اللّه ـ تعالى ـ وإنْ قيل لك غير هذا فلا تصـّدقه، فلقد أظهـر المعرّى حيـرته فى القضاء والقـدر، وحرية الإرادة، وحكمة الخلق، وحقـيقة الروح، وكيفـية البعث، ولكنه بقى معـتصماً بإيمـانه بوجود اللّه، لأن عقله السلـيم دله، بالبرهان، على هذا اليقين الذى لا يمكن للعقول السليمة الإفلات منه[3].

ومـا يهـمنا فى حـديث (الشـيخ الجـسـر) ـ هو هذا المـنهج الكريم

---

(١) الشيخ نديم الجسر: قصة الإيمان بين الفلاسفة والعلم والقرآن ص٩٢

(٢) الشيخ نديم الجسر: قصة الإيمان ص١٠٥

(٣) الشيخ نديم الجسر: قصة الإيمان ص١١٣

المنصف الذى يحترم الحياد العلمى فينقد ويفنّد ويصوِّب لكن ذلك يتمّ دون قدح أو تجريم بالجملة أو دون إغضاء عن الإيجابيات أو تضخيم للسلبيات أو تعسّف فى تأويل السلبيات بحيث تخرج بها عن دائرة الاجتهاد الخاطئ إلى دائرة الرمى بالكفر الحرام أو الاتهام بالخبث والكيد العمد للإسلام والتواطؤ مع خصومه وأعدائه من الزنادقة والملحدين..!!

ولم يكن الشيخ نديم الجسر - جزاه الله خيرا - وحده الذى يسير على هذا المنهج الودود المنصف الذى يقدر للناس بشريتهم واجتهادهم ولا يتعامل معهم على أساس أنهم لابد أن يكونوا ملائكة معصومين!!

- بل وجدنا آخرين يمشون على نفس الدرب فى التقويم البشرى المنصف للناس، وعلى رأس هؤلاء سماحة الأستاذ أبى الحسن على الحسنى الندوى الذى أنصف جلال الدين الرومى، والتمس له الأعذار، وأنصف شاعر الإسلام محمد إقبال، والإمام السرهندى أحد كبار المجاهدين فى الهند، والإمام الشهيد عرفان الدين وغيرهم.

يقول الشيخ الندوى كبير علماء الهند عن جلال الدين الرومى المتهم عند بعضهم: «جاء الرومى حين كان العالم الإسلامى فى حاجة إلى شخصية تنفخ بقلبها وعاطفتها القوية روحاً جديدة فى المجتمع الذى طغى عليه العقل وساد عليه الخمول، وقد كان شعره الذى يعرف (بالمثنوى العلوى) ثورة على علم الكلام الذى فقد

جدَّته وقوته، ونقد الفلسفة فى اتجاهها ومنهجها وتجاوزها حدودها فى تقدير الحواس وتقديس العقل.

وكان (جلال الدين) شديد الرياضة والمجاهدة كثير التعبد، قال فيه أحد أصحابه الذين صاحبوه أعواما طوالاً وهو (سيد سالار):

لم أره قط فى لباس النوم، ولم أر عنده فراشاً ولا وسادة، فإذا غلبه النوم نام جالساً.

وكان يقول فى أحد أبياته الشعرية: كيف ينام من يتقلب على حسك السعدان؟!

- وإذا حانت الصلاة توجه إلى القبلة وتغير لونه، وكان كثير الاستغراق فى الصلاة.

يقول «سيد سالار»:

رأيته مراراً دخل الصلاة فى العشاء وقضى الليل كله فى ركعة».

- وعن أبى الحسن الأشعرى ـ المتهم عن بعضهم كذلك يقول.

- الشيخ أبوالحسن الندوى ـ أطال الله عمره.

«اكتسب أبوالحسن ملكة قوية ومرانا على البحث والاستدلالا بحكم اشتغاله بالبحث فى علم الكلام والدفاع عن المعتزلة وكان صاحب موهبة وقريمة شديدة العارضة قوى الحجة، وقد أشعل إخلاصه للدين وانتقاله لمعسكر أهل السنة مواهبه، وكان يرد على المعتزلة وحججهم فى سهولة.

ـ ويقول عن أبى منصور الماتريدى المتهم عند بعضهم:

إذا كان الأشعرى دائما فى معارضة وأخذ وردّ مع المعتزلة مما أدخل

فى بحوثه غلواً وزيادات، فإن الماتريدى حذف هذه الزوائد التى كانت تحتاج إلى تكلف وتأويل وتناول علم الكلام بالتهذيب حتى أصبح أكثر توسطا واعتدالا وكان الخلاف بينه وبين الأشعرى جزئيا محدودا لايزيد على أربعين مسألة.

أما الدكتور مصطفى الشكعة، ففى كتابه العظيم: «معالم الحضارة الإسلامية» ينصف عدداً كبيراً من الشخصيات الإسلامية ويرصد حسناتها التى تعمد الكثيرون إلى إغفالها وتجاهلها والتركيز فقط على بعض الأخطاء والسلبيات التى وقعوا فيها بحكم بشريتهم... يقول الدكتور «الشكعة» عن الفيلسوف الفارابى:

إن ابن أبى أصيبعة يُصنِّف الفارابى مع طبقة الأطباء المشهورين في الشام، وهو مخطىء فى ذلك فالفارابى يمثل طبقة واحدة على مساحة الفكر الإسلامى والأرض الإسلامية طولاً وعرضاً، ولكنه يصدق كل الصدق حين يصور شخصية المفكر الفيلسوف الكبير فيقول عنه: كان رحمه الله فيلسوفا كاملا، وإماما فاضلا، قد أتقن العلوم الحكمية، وبرع فى العلوم الرياضية، ذكى النفس، قوى الذكاء، متجنبا عن الدنيا، مقتنعا منها بما يقوم به أوده، يسير سيرة الفلاسفة المتقدمين، وكانت له قوة فى صناعة الطب وعلم بالأمور الكلية منها، ولم يباشر أعمالها ولا حاول جزئياتها.

والحق انه لم يفتتن مؤرخو العلوم العقلية الإسلامية بعالم أو

فيلسـوف افتتـانهم به، فالقفطى يلـقبه بفيـلسوف المسلمين دون مدافع، والبـيهقى يـلقبه بالمعلم الثـانى ويقول: الحكمـاء أربعة: اثنان قبل الإسلام هما أرسطو وأبقراط، واثنان بعد الإسلام هما أبونصر وأبوعلى يقصد الفـارابى وابن سينا، وصاعد الأندلسى يلقـبه بفـيلسوف المسلمـين بالحقـيقـة وابن خلكان يلقبـه بأكبـر فلاسـفة المسـلمين، ويذكر انه لم يكن فـيهم من بلغ مـرتبتـه فى فنونه.

ويقـول الدكـتور الـشكقة ايـضا عن فـلسفـة أبي نصـر الفـارابى ومميزاتها:

هذا والصفة الإسلامية لا تتخلى عن فكر الفارابى ولا تنفصل عنه فيلسوفا، وهو يحذر تعاطى الفلسـفة إلا لمن كانت له معرفة دينية وإيمان إسلامى عمـيق ومن لا تكون هذه حالة يكون عرضـة للتيه والضلال.

ويتابع الدكـتور الشكعـة رؤيته الوضيـئة فيـقول عن أبى حـيان التوحيدى:

اختلف المؤرخـون فى شأنه، فمنهم من وصمـة بالزيغ والإلحاد، وفى مـقـدمة مـن رماه بذلك أبـوعلى الفـارسى، والذهبى وابن الجـوزى، وابن الجوزى أكـثـر تحامـلاً عليـه، لأنه يقول: زنادقـة الإسلام ثلاثة: ابن الراوندى، والتوحيدى وأبوالعلاء المعرى، ثم يستطرد قائلا: وشرّهم التوحيدى، لأنهما صرحا ولم يصرح!!.

ـ أما ياقوت فيصف التوحيدى بأنّه صوفى السّمت والهيئة يتعبّد

ويتمسك والناس على ثقة من دينه، وأما رميه بالزندقة فأمر يصعب تصديقه، وليس بين أيدينا من كتبه الكثيرة إلا ما يثبت عمق تدينه وتسبيحه لله بعبادات بلغت من الرصانة حداً كبيراً.

* * *

- وأنا أتساءل: ماذا تستفيد عندما نكثر من أعداد الملاحدة والخبثاء في تاريخنا؟

- وماذا نستفيد عند ما نحول فلاسفة الإسلام من مدافعين عن الإسلام ضد الغزو الإلحادى الى جنود لهذا الغزو؟

- وكيف لنا أن نحكم على قلوب هؤلاء ونواياهم وأهدافهم... لمجرد أن بعضهم أخطأ فى فهم بعض معالم المنهج الإسلامى، أو فى بعض طرائف الاستدلال؟!!

- لقد سئل الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه عن عقيدة الخوارج الذين يحاربونه: أهم كفار؟!!

فأجاب: هم من الكفر فروا.. مع أن هؤلاء الخوارج فى عصر الإمام على - كانوا أسرع الناس إلى التكفير، لكن حاشا لأمير المؤمنين العظيم على بن أبى طالب أن ينزل إلى مستوى «الظلم» لخصومه الذين لم يجدوا وسيلة لحربه إلا حاربوه بها حتى قتلوه!!

- وما قيل عن فلاسفة الإسلام فى القديم وشكّل تياراً باقياً يَتَشَبَّثُ به أصحابه، يقال - أيضاً - عن كثير من دعاة النهضة الإسلامية المعاصرة، وعلى رأسهم جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ورشيد رضا..!!

ـ إن تيارا جـارفا يتـشبث بالطعن فى هؤلاء، ورمـيهم بشتـى التهم، وعـدم التـمـاس أى عـذر لهـم، وكـأنه من المفـروض أن يكونوا معصومين في فكرهم ودعوتهم وحركتهم، فلا يخطئون في اجتهاد، ولا يرتكبـون أى شيء مما يرتكبه البـشر، ولا يقـومون بعـمل ـ ولو واحد ـ يحـسب عليهم... وهم إن فعلوا شيـئا من ذلك ـ ولابد أن يفعلوا ـ فـالويل لهم ولن يغفـر لهم الحقـدة من البشر ـ متعـصبين كانوا أو ملحدين ـ فـالله سبحانه وتعالـى يغفر الذنوب والأخطاء، لكن هؤلاء الملاحدة والمتعصبين لا يغفروك!!

ـ لقد آن للمـسلمين أن يكفوا عن هذا المناهج القائم على التـرصده كما انه يجب عليـهم بعد هذه التجارب التى مرت بهم أن يفـسحوا عقـولهم ونفوسهم للاجـتهاد فى أمور الدنـيا والدين واعين بالمنهج الإسلامى الرشيد، ملتمسين الأعذار لعثرات العقول والأقلام.

وسـواء كان بحـثهم فى علوم الدين أو عـلوم الدنيا فـالنيّة والغـاية يجب أن يتجهـا إلى عبادة الله وخدمة الإنسان، وعليـهم أن يلتزموا بّالمعـيارية الإسلاميـة المؤمنة بعالمـى الغيب والشـهادة وبالعـقلانيـة الإسلامـية التى توجـت ألا يكون هناك تناقض بين النقل الصـحيح والعقل الصحيح، ولا بين شريعة الله الإلهية وحكمة الإنسان المعبرة عن جهاده في سبيل الحقيقة، وفهم السنن الكونية والاجتماعية...

الاجتهاد فى أمور الدين

ــ يعّد (منهج الاجتهاد) من أبرز ميزات التفكير الإنسانى العلمي..

وعندما يكون التفكير ــ بلا منهج أو منطق معقول يصبح تعبيراً شعرياً ذاتياً غير صالح للتعميم والتقعيد وتحقيق الفائدة العامة.. ومن هنا فلابد ـ إسلامياً ـ من أن يكون التفكير مرتباط بالمنطق والعقل.. العقل المحايد المنصف الجماعي.. المنضبط

ــ والاجتهاد فى أمور الحياة العامة مفتوح بلا ضوابط الإ ضوابط المصلحة والمنفعة والأخلاق الإنسانية.. أما الاجتهاد الاصطلاحى المرتبط بدين ـ هو الإسلام ـ فلابَّد من أن يكون مقَّدا بالنصوص الإسلامية القطعية الثبوت والدلالة.. وأن يكون مقيَّدا باللغة المنضبطة بالضوابط المعجمية والمجمعية.. أى «القاموسية» المعتمدة، والمقدره ايضاً من علماء المجامع أو اللغة.. وإلا اصبحت لغة خاصة صوفية غير قابلة للتعميم والاستعمال الاجتماعي.. فلا اجتهاد مع النص.. وإلا أصبح اجتهادا غير إسلامى ولا اجتهاد بدون لغة مشتركة يفهمها الجميع فهما واضحاً وفهماً واحداً يحتكمون إليه ويتعاملون به ومن البديهيات التى يؤمن بها كل مسلم أن الكتاب الذى أنزله الله على نبيه محمد عليه السلام، وهو القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة هما المصدران لكل جانب عقدى أو تشريعى فى الإسلام. والفرق بين التصورات الإسلامية وغير الإسلامية توزن بحسب انطلاقها من هذين المصدرين أو ابتعادها عنهما، فضلاً عن تلك الاجتهادات التى لا تنطلق منها حتى وإن زعم أصحابها أنهم مجتهدون مسلمون!!

ــ وليس مْن صلاحيات أى مسلم ـ كائنا ماكان ـ ان يتعدى على

أصول الإسلام الثابتة وهى القرآن وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم القولية والفعلية والتقريرية.

وسواء اطلق على هذا الاعتداء اسم التطوير ام المعاصرة ام التحديث، أم غير ذلك من المصطلحات، فإن هذا الاعتداء أمر منكور لا يقبله الإسلام.

وليس فى الإسلام حق مقدس لفرد ما، كما لا توجد (مجامع مقدسة) تملك حق حذف النصوص أو الاعتداء على دلالاتها الظاهرة الواضحة. وكل ما عرفه المسلمون من صور الاجتهاد فإنما كان اجتهاداً قائماً على أساس أصلى الإسلام الثابتين، وفى ضوئهما ولم يكن شيئاً اضافياً لهما أو خروجاً عن ظلالهما وإشعاعاتهما

ـ وفى تقديرنا أن هذا الفهم الواضح لطبيعة النظام الإسلامى وأصوله قضية لا يمادى فيها عقل مسلم، فضلا عن فقهاء الأمة المجتهدين.

وإنما مناط الخلاف هو ما سوى القرآن والسنة مما اصطلح على تسميته «بالأصول الفقّهية الاجتهادية» أو «الأصول التبعيَّة»!!.. وهذه الأصول تطورت وتراكمت حتى أصبحت علماً قائماً بذاته تدور حوله مجموعة من العلوم الفرعية فاعتمادا على القرآن والسنة وانطلاقاً منهما أبرز العقل الإسلامى فى أدوات أو أصولاً فقهية مؤصلة للاجتهاد ومعينة على الاستنباط الصحيح..

وهذه الأصول هي:

١ ـ الإجماع (وهو اتفاق أهل الحل والعقد من أمة محمد صلى الله عليه وسلم فى عصر من العصور على أمر من أمور الدين أو الدنيا)

٢ ـ القياس (وهو مساواة أمر لآخر فى علة حكم له شرعى لا ندرك من نصه بمجرد فهم اللغة)

٣ ـ الاستصحاب (وهو الحكم على الشئ فى زمن متأخر بما كان قد حكم به فى زمن متقدم حتى يثبت دليل على تغيير الحكم لعلة طارئة).

٤ ـ المصلحة المرسلة (وهى الوصف الذى يكون فى ترتيب الحكم عليه جلب منفعة للناس أو درء مفسدة ظاهرة أو خفية عنهم).

٥ ـ سّد الذرائع والحيل (وهى إغلاق المنافذ التى تكون فى ذاتها جائزة، لكنها تؤدى إلى ممنوع شرعاً)

٦ ـ الاستحسان(وهو العمل بأقوى الدليلين فى ضوء الترجيح بين الأدلة والأقيسة واستثناء مسألة من أصل عام لاعتبارات خاصة وما إلى ذلك مما يتصل بحس المسلم وفقهه).

٧ ـ العرف وهو(ما تلقته طباع الناس بالقبول واستقرت عليه نفوسهم وصار عند جميعهم شائعاً قولاً كان أو فعلاً، بحيث لا يعارض أمراً من أوامر القرآن أو السنة الشريفة، ومثل العرف العادة فهما شبه مترادفين).

٨ ـ شرع من قبلنا وهل يصلح شرعا لنا.

٩ ـ فتوى الصحابى (وهل هى ملزمة أو يستأنس بها فقط؟)

● فهذه الأصول الفقهية ـ وغيرها مما يحلق بها ـ هى مناط الخلاف بين الفقهاء والمجتهدين، وهى ما يحاول بعضهم فى أيامنا تلك تطويرها وتجديدها، بحيث تستوعب مستحدثات عصرنا الكثيرة، لكن بعضهم يرى أن «التجديد أو التطوير» فى هذه الأصول لن يعدو أن يكون عملية «شكلية» لأن هذه الأصول يمكنها أن تستوعب أية وقائع مستحدثة وهم ـ من خلال هذا البحث ـ يسألون دعاة التطوير أو التجديد، هاتوالنا وقائع لا تنتظمها هذه الأصول؟ وثمة فريق ثالث يرفض «التجديد» بالجملة ويرى أن هذا المصطلح سُلَّم للاعتداء على حقائق الإسلام الثابتة، وأن الأمر سيتدرج من الفقه إلى الشريعة، ومن الشريعة إلى العقيدة وبها أن هذا البحث محايد ـ فى حدود الاجتهاد المقبول ـ فنحن نحترم كل الآراء مادامت كلها فى إطار الأصلين الثابتين وهما القرآن الكريم كتاب الله الذى ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ﴾[1]

وسنة الرسول (وهى ما صدر عنه صلى الله عليه وسلم قولاً كان أو فعلاً أو تقريراً) فالكتاب والسنة أصل الأصول. أما ما هو خارج عن كتاب الله وسنة رسوله، فنحن لا نسميه اجتهاداً، بل هو انحراف عن الإسلام، وعند هذا الحد فنحن لسنا بمحايدين بل نحن ندور مع كتاب الله وسنة رسوله ـ إن شاء الله ـ ولا نحيد عنهما

(١) فصلت ٤٢

ولا نقدم عليهما سواهما فلا حياد، ولا حيدة لمسلم عن كتاب الله وسنة رسوله.

واعتماداً على الكتاب والسنة برز علم أصول الفقه ـ كما ذكرنا ـ لينمي فى الفقيه المسلم ملكة الفهم الصحيح، والتعامل الموضوعي مع الأدلة الشرعية، وقد أصبح هذا العلم يمثل: (المنطق الإسلامي) كما يمثل (فلسفة التشريع الإسلامي) الذى تجلت فيه أصالة هذا الفكر وإبداعه واستقلاله.

وقد ألف فيه الإمام الشافعى كتابه العظيم (الرسالة) ثم توالى المؤلفون من أمثال أبى بكر الجصاص، وأبى زيد عبيد الله بن عمر وإمام الحرمين الجوينى وأبى حامد الغزالى وتوالت المؤلفات حتى العصر الحديث.

ومع بدايات عودة الأمة إلى ذاتها ودينها وحضارتها فى العصر الحديث، ظهرت أهمية الاجتهاد، ذلك الباب الذى لم يطرقه المسلمون ـ كما ينبغي ـ منذ عصور طويلة، وفى بعض بلدان العالم الإسلامى ظهرت محاولات «تقنين الشريعة» وظهرت «مجامع فقهية» وفرض الاجتهاد نفسه كحقيقة مهمة، وتنادى مفكرو الإسلام فى كل مكان بضرورة الاجتهاد، فى الفروع، ثم أصول الفقه الاجتهادية.

والحقيقة أننا فى حاجة إلى إدراك أهمية علم أصول الفقه، واعين بأن ثمة قضايا شائكة امتنع كثير من المسلمين عن الولوج فيها، بل حورب بعض العلماء الأفذاذ الذين ناقشوها بقوة وجرأة.

ومازالت هذه القضايا موضع شدّ وجذب، بيد أنها لا تقلل من ضرورة التعامل العصرى الواعى مع علم أصول الفقه.. الذى يمثل - بحق - منطقنا الإسلامى وفلسفتنا الإسلامية الأصلية.

يقول الدكتور محسن عبدالحميد المفكر الاسلامى العراقى فى حديثه عن «أزمة المثقفين تجاه الإسلام»

- إن علم أصول الفقه، هو فلسفة الإسلام الواقعية التى تراقب الحياة التى تتحرك فيها الخلافة الإنسانية على الأرض، كى لا تنحرف فتضلّ وتؤدى إلى فقدان الموازين وضياع الفطرة وحيدة العقل بين الآراء والاجتهادات التى تفتقد إلى محور ثابت يتحاكم إليه، فهو على ذلك أفضل ما أنتجته الحضارة الإسلامية وإن علم أصول الفقه قام بدور عظيم فى ضبط حركة التغيير الاجتماعى عبر التاريخ وأعطى للحضارة الإسلامية فى مناحى الحياة كافة ملامحها الواضحة.

ولقد قامت عقليات جبارة فى تاريخ الإسلام باستنباط الضوابط الأصوليه، والقواعد الفقهية من نصوص القرآن والسنة النبوية ابتداء من الشافعى ومروراً بمتكلمى المعتزلة والأشاعرة الأوائل وفلاسفة الفقهاء العلميين من أمثال الكرخى والسرخى ونجم الدين الطوفى وأبى الحسين البصيرى وانتهاء بالباقلانى وإمام الحرمين والآمدى وابن حزم والفخر الرازى وابن تيمية وابن القيم والشاطبى والتفتازانى وغيرهم، ولقد ضبط هؤلاء العباقرة وغيرهم هذا العلم

بكلياته وجزئيـاته حتى ليظن الإنسان أنه لم تبق ثغرة غيـر مسدودة، ولا بقيت مسألة غيرمطروحة.

وعلى الرغم من ضيق مجال التـجديد فى هذا العلم العقلى العظيم المسـتنبط من الوحى المعـصوم، إلا أننى أرى أن التـغـير الهـائل فى الحـيـاة الذى وجد فـى القرن العـشـرين، ومـا يمكن أن يحـدث فى المستقبل ليشكل صراعا واقعيـا متشابكا نحتاج معه إلى إعادة النظر فى بعض القضـايا المتصلة بالأصول التـابعة للقرآن والسنة، خـاصة تلك التى يمكن أن تتحرك فى اتجاهات متعددة نصل بها إلى نهايتها، بقدر ما يحـقق هذا الأمر حل عقد الصراع الـفكرى الواقعى الجديد لينتقل التـشريع الإسلامى من التـجريد والتعطيل إلى مـجال الواقع والتنفيذ.

ـ فمـثلا: كيف نسـتفيـد من أصل الإجمـاع فى المؤتمرات الفقهـية الإسلامية، من حيث هو كاشف فى عـصر ما عن مقاصد النصوص ومآلاتها؟

ـ هل يمكن أن ينسخ إجمـاع مبنى على المصلحة إجماعـاً سابقاً فى عصـر متقـدم فى ضوء القـاعدة الفقـهية المشـهورة «حـيثمـا كانت مصلحة المسلمين فثم شرع الله»

(وقد تتعدد المصالح بتجدد العصور)؟!

وما موقفنا اليوم من الأحاديث النبـوية الشريفة المبنية على الأعراف التى كـانت سـائدة أيام الرسـول صلى الـله عليـه وسلم؟ وهل من الحـتم أن نتـمـسك بظاهرها إذا تبـدل العـرف، وهل يكون تحـقـيق

العرف الجديد هو السنة باعتبار أن الحكم يدور مع علته وجوداً وعدماً؟

ثم مازلنا نحتاج اليوم إلى البحث العميق عن الحاجة الشديدة هل تنزل منزلة الضرورة أم لا؟ كما ذهب إلى ذلك الحنفية. ولم نزل نحتاج إلى بحث أعمق فى مسألة تخصيص عموم القرآن» بخبر الآحاد، وهى النظرية الأصولية التى رفضها الحنفية، وما موقف الأصوليين فى الوقت الحاضر من نقد المستند فى الحديث؟

إذ نشعر بأن المحدثين قد صبوا اهتمامهم على نقد السند وأتوا فى ذلك بقواعد نفيسة جداً، ولم يهتموا بنقد المتن بنفس درجة اهتمامهم بنقد السند

ـ وإذا كانت ظروف المجتمع الإسلامى فى العصور المتأخرة قد حالت بين هذه الآراء وبين الوصول إلى مواقع متقدمة من موضوعات علم أصول الفقه...

فإن ظروف العصر المتجدد تدعونا إلى دراسة هده الموضوعات من تراجع إمكانية دفع تلك المسائل الى موقعها فى حركة الحياة المتغيرة المعاصرة، وأنا لا أدعو الى فرض الآراء والقواعد مسبقاً وإنما أدعو الى التركيز على دراسة «الاصول التبعية» لعلنا نستطيع أن نوجد قواعد وقضايا جديدة تشترك فى إحياء حركة الفكر الأصولى والفقهى فى الإسلام، حتى يخرج هذا الفكر من إطار النظريات المجردة إلى الوقائع الملموسة القادرة على مواجهة التطورات العملية المعاصرة.

مصطلح الاجتهاد ونطاقه:

إذا كان لـلاجتهـاد فى اللغـة معناه الذى يروج على ألسنة النـاس فإن معناه فى الاصطلاح الأصولى لم يكن مـقطوعا عن المعنى اللغوى بل سيكون أكثر تحديداً واكثر ارتباطاً بالمجال العلمى الذى يدور فيه.

ــ ويقصـد بالاجتهـاد فى اللغة بذل الوسع والطاقـة فى طلب الشئ ليـبلغ المجهـود ويصل إلى النهاية، وفى حـديث معـاذ المشهـور ترد عـبـارة: «أجتــهـد برأيى» أى أبذل وسـعى فـى طلب الحق، وفى الاصطلاح يرى الأصوليون أن الاجتـهاد هو استفراغ الفقـيه الجهد والوسع لتحصيل ظن بحكم، أو علم به ـ كـما يرى الإمام الغزالي، وطريق الوصول إلـى تحصيل الحكم الشـرعى يكون عن طريق بذل الجهد فى إرجاع الواقعة إلى شبـيه بها عن طريق «القياس» عليها أو اللجوء إلى «مقـصد» من المقاصد الشـرعية تندرج الواقعـة تحته، أو إلى علة مشتركة مع حكم آخر.

ــ ويستعمل فى مجال (الاجتـهاد) غير (القياس) مصطلح (الرأي) ويقـصـد بـه الأصـوليـون (الأثر) والأثر هو النـص من الكتـاب أو السنة، والرأى هـو الاجـتـهـاد بالعـقل علـى ضـوء النص، وهو لا يختلف كثيراً عن الاجتهاد، وهو أهم من القياس، والرأى منه ما هو باطل كالرأى بالهوى وبدون علم كاف ومنه ما هو مـشتبه فيه، ومنه مـا هو صـحيـح،... ويتصل بمـصطلح الاجـتهـاد ايضـاً مـصطلح (الفـتـوي) ويقـصـد به التنبيـه والإعـلام بما يشـكل من الأحكام الشرعية.. والفتوى لا تكون إلا حصاداً للقدرة على الاجتهاد وعلى

استنباط الأحكام بالرأى أو القياس، فهى نتيجة لا يستحقها إلا من توافرت له شروط الأهلية للاجتهاد.

والحق أن هذه المصطلحات أقرب ما تكون إلى الترادف، وقد استعملها علماء وفقهاء كثيرون ثقات على أنها مترادفة، والفروق بينها فروق دقيقة اللهم إلا (الفتوي) فهى مصطلح مستقل، وله مدلوله الخاص.

☆ ☆ ☆

وإذا كان القرآن والسنة الصحيحة هما مصدر الاجتهاد، وهما مرجعية كل مسلم مهما اختلفت ثقافته ودرجة وعيه - فإن الاجتهاد - بالتالى - يدور فى تلك المنطقة التى لا تكون قطعية الثبوت قطعية الدلالة.

- وقد عمد الأصوليون إلى محاولة حصر أسباب الاختلاف بين الفقهاء، ووصلوا إلى أن أهم هذه الأسباب هي:

١ - الاجتهاد فى معرفة المراد من النص إذا لم يكن قطعى الدلالة.

٢ - الاجتهاد فى دفع التعارض بين النصوص التى يوهم ظاهرها التعارض.

٣ - الاجتهاد فى الأدلة ظنية الثبوت.

٤ - الاجتهاد فى أقوال الصحابة.

٥ - اختلافهم فيها إذا نقل عن الصحابى رأى بخلاف ما رواه.

٦ - اختلافهم فى العمل بالحديث الذى كذب الأصل الفرع فيه.

٧ - اختلافهم فى قول الصحابى: هل هو حجة مطلقا أولا؟

٨ - اختلافهم فى الأصول الأخرى كالقياس والاستحسان واستصحاب الأصل والمصالح المرسلة وغيرها.

٩ - الاجتهاد فى إلحاق مسكوت عنه بمنصوص على حكمه.

١٠ - تطبيق القواعد الكلية على جزئيات الوقائع.

١١ - النظر فى أعراف البلاد.

١٢ - اختلافهم من القراءات الشاذة.

١٣ - اختلافهم فى خبر الواحد هو حجة أم لا؟

١٤ - اختلافهم فى الحديث المرسل.

ونستطيع أن نقول إن تعدد الأماكن واتساع الدولة الإسلامية، والتعامل مع أنماط مختلفة من المدنّية، ومحاولة التكيف أحياناً مع الواقع والوصول إلى الحل الأيسر اعتماداً على أنه عليه السلام ما خُير بين أمرين إلا اختار أيسرهما.. كل هذه البواعث كانت اضافات فرضت على العقل المسلم أن يجتهد فى كل الظروف.

وفى العصر الحديث ضغطت مشكلات كبرى فكان لابد من تحريك العقل المسلم تحريكاً يتواءم مع حجم التحديات وكانت المجالات الاقتصادية والطبية والاجتماعية من أهم مجالات التحدى، ففازت بكثير من الاجتهادات وظهرت فى دنيا الواقع مؤسسات اقتصادية ومالية اسلامية تشرف عليها هيئات رقابية شرعية، كما ظهرت دراسات تتحدث عن الاتجاه الجماعى فى التشريع الاقتصادى الاسلامى[1]، وظهرت دراسات أخرى تقاوم النظريات الاشتراكية

(١) انظر كنموذج رسالة للدكتور محمد فاروق البنهان، بهذا العنوان، نشر مؤسسة الرسالة بيروت ١٤٠٤ هـ

فى المجالات الاجتماعية، ولا نستطيع أن ننكر بعامة وجود نهضة اجتهادية فقهية فى العصر الحديث.

● ويُعدّ الاجتهاد الجماعى المعاصر استئنافاً لعصور الازدهار التشريعى الاسلامى، فقد روى مالك بن أنس عن يحيى بن سعيد الانصارى عن سعيد بن المسيب عن على بن أبى طالب قال: «قلت يارسول الله: الأمر ينزل بنا لم ينزل فيه القرآن، ولم تمعن فيه سنة، قال: «اجمعوا له العالمين» أو قال: «العابدين» من المؤمنين، فاجعلوه شورى بينكم ولا تقضوا فيه برأى واحد».

وهكذا كانت طريقة الخلفاء الراشدين فقد وجدت لهم مجالس شورى عامة، بالإضافة إلى مجالس الشورى الخاصة فكانوا يجمعون فى المسجد النبوى رؤساء الناس من ذوى الرأى، فيستيشرونهم فى الأمور الخطيرة كما فعل عمر فى جمع الصحابة للبحث فى قسمة موارد العراق وغيره من الأراضى المفتوحة عنوة، وانتهى رأيهم بالاتفاق على ابقاء الارض بيد أهلها وعدم قسمتها بين الفاتحين، ويبرز هذا المنهاج فى أعمال عمر المتكررة، فكان إذا نزلت نازلة ليس فيها نص عن الله ولا عن رسوله جمع لها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم جعلها شورى بينهم ومما كتبه لشريح: «فإن أتاك ما ليس فى كتاب الله، ولا بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فاقض بما أجمع عليه الناس» وطريق التشاور العلمى والاستنباط من الأدلة يعتمد على أمرين: أصول الفقه والقواعد الفقهية الكلية، والقواعد مبنية على فهم «مقاصد

الشريعة، والمقاصد مبنية على اعتبار المصالح، والمصالح معتبرة من حيث وضع الشرع، لا بأهواء الناس». وهذه الشورى العلمية على النحو الجماعى أخذ بها المالكية فى تعديل الاحكام الفقهية عندما يتبدل عرف الناس وتتغير مصالحهم وهى أيضاً ما يجدر أن نأخذ به فى العصر الحديث، ولعل فيما قامت به رابطة العالم الاسلامى بمكة المكرمة من انشاء (المجمع الفقهى) مؤشراً على المعالم الجديدة والصحيحة لطريق الاجتهاد وكذلك «الأزهر الشريف» ومنظمة المؤتمر الاسلامى!!

الاجتهاد.. والدين الخاتم:

عندما يقول الله فى القرآن الكريم:

﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾(1)

ويقول:

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾(2)

فإن ذلك يعنى من وجهة نظرنا أن الله أودع فى القرآن كل الأصول والكليات والمعالم التى تكفى للسير فى طريق الحياة إلى يوم القيامة - ما دام هذا الإسلام هو الدين الخاتم - شريطة أن يعمل المسلمون

(1) الأنعام: ٣٨
(2) المائدة: ٣

عقولهم بحيث تتفاعل هذه العقول مع الكليات والتوجيهات التى جاء بها القرآن الكريم صالحة إلى يوم القيامة.

وهذا يعنى أن الاجتهاد فى كل عصر فرض، وأن تاركه أو الداعى لإغلاقه جاهل أخلد إلى الأرض!!

- إن الاجتهاد فى الفقه باب فتحه الله. والباب الذى فتحه الله لايملك أحد إغلاقه!!

والفقه - بدون اجتهاد - هو حكم على شريعة الله بأنها غير صالحة لكل زمان ومكان وهو تضييق على الناس يؤدى إلى تفلتهم من دين الله ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾(١)

فى عبارته التى تعطى الاجتهاد الفقهى حقه الدائم فى الاستمرار إلى يوم القيامة .. « إن شريعة الله كاملة مطابقة للعقل والحق والعدل، فإذا ظهرت أمارات الحق وقامت أدلته وأسفر صحبه بأى طريق كان ذلك من شرع الله ودينه، والله تعالى لم يحصر طرق العدل وأدلته وأماراته فى نوع واحد، ولكن بيّن أن مقصود إقامة الحق والعدل بأى طريق كان ».

إن لقضية (الاجتهاد) جذورا تاريخية مرتبطة بدور الفقه فى الحضارة فعلم الفقه من وجهة نظر تاريخية - هو الطابقان الاجتماعى والاقتصادى فى بناء الحضارة الإسلامية - وبالتالى ،

(١) الحج: ٧٨

فـإن وصول هذا العلم إلى تقـديم إطار مـلائم متناغم مع الجـوانب الحياتيـة الأخرى يشكل بعداً من أبعاد قـضية الحضارة الإسـلامية ، والمقياس فى عطاء هذا العلم ينحصر فى الجوانب الملحة التالية :

أ - مدى ارتباط هذا العلم بالأرضية اليقينية الإسلامية التى لا جدال فى أنها خلاصة الكليات التى يمتاز بها الإسلام.

ب - مـدى قـيادة هذا الـعلم - ولا أقـول مدى تعـبيـره - للدورة الحضارية التى تمر بها الأمة.

ج - مدى إسهام هذا العلم فى تحـقيق الشخصية الحضـاوية المتميزة وفى تقديمها للإنسانية كحضارة ذات هوية، وذات فعالية.

والذين يتتـبعون الأسباب الحـقيقيـة لبعض الاتجاهات الفقـهية التى انتظمت أعلاماً أفذاذاً من أقطاب تاريخنا، سوف يكتشفون العوامل الحقيقـية الحضارية التى جعلت هؤلاء الأفذاذ المجتـهدين يقفون فى جانب ، والفقهـاء المذهبيين التقليديين يقـفون فى جانب آخر، ومن هذه الأسباب:

- إن الفــقــه المذهبى قــد تخطـى دوره فى البناء الاجــتــمــاعى والاقتـصادى المعاش المنظور ليـصبح عـقيـدة وهيكلاً أيديولوجـيا يطفى على الأصـول للاعـتـقـادية والفكرية. لقـد تحـول الرأى إلى عقيدة، وتقدمتَ النافلةُ الغرضَ والفرُع الأصلَ .

- إن الفقه - ممثلا في بعض الفقهاء خلال بعض العصور - قد خان دوره ، وأصبح بجموده أحيانا، وبعدم ارتـباطه بالجذور أحياناً، لعبة سياسية تُقَادُولا تقود وتحكم ولا تحكم.

- إن الفقهاء في بعض العصور فرضوا آرءاءهم الفرعية بصورة ليست من طبيعة الإسلام، فانقلبوا من حارس للبناء الاجتماعي والاقتصادى إلي تابع للأوضاع المختلفة التي يحركها البناء السياسي، يعطونها التبرير الجدلي، ويلوون أعناق النصوص من أجلها ومن أجل تسويفها.

ومقام الاجتهاد - اليوم - لم يعد مقام هذه الفتاوي الجزئية التي يستطيع أن يتصد لها آلاف الفقاء، إن التحدي أكبر من ذلك ، فأبنية المسلمين الاقتصادية والاجتماعية في ظل عالمنا المركب تحتاج إلي (مجامع فقهية) وإلي صور متكاملة من الاجتهاد الجماعي الذي يستطيع أعضاؤه صياغة حياتنا صياغة إسلامية معاصرة، ومنح حياتنا البديل الإسلامي الكامل، في شتي الجوانب الفقهية اقتصادية كانت أو اجتماعية، وبما أن عصرنا (عصر مؤسسات) فمن الضروري أن تنشأ مؤسسات فقهية قادرة علي مواجهة العصر، حتي لا تغزونا الأفكار التشريعية والنظم الاقتصادية والاجتماعية المدمرة، و(الاجتهاد) هو سلاحنا الأكبر في معركة التحدي، ومن هنا استحق أن نوليه الاهتمام الذي يستحقه.



التعزير: من أبواب الفقه المتطورة دائما:

- يقصد بالتعزير تلك العقوبة التقديرية التي يفرضها القاضي أو الحاكم، بحيث تكفل الردع، عندما لا يقع الخطأ تحت حدّ من

الحدود المنصوص علي عقوبتها...

- ويري الفقهاء أنّ التعزير من أهم أبواب الفقه (العقوبات) المتصلة بالتطور فهـو - أكثر من الحرابة - عقـوبة مفتوحة مـتطورة يستطيع القاضـي أو الحاكم الاتكاء عليـها لمقـاومة كل الموبقـات الأخلاقـية والاجتماعية ، بيـد أن هذه العقوبات لايجوز أن تصل إلي الحدّ (إلا في حالات الضرورة القصوي) لكن الشيخ «نجيب المطيعي» له رأى آخر.. إنه يقول:

لقد تردد أخيـراً أن التعزير الذي للسلطان أن يقدره وأن يقـضي فيه قد يبـلغ حد القتل، ولا أدري مـن أين أتوا بهذه المجازفـات التي لا تتفق مع كتاب ولا سنة فإن التعزير لا يبلغ الحد بحال من الأحوال، فلا يصح في الجلد أن يصل إلي الثمانين لأن الثـمانين حد حده الله تعالي في القذف. وفي الحديث «من بلغ بما ليس بـحد حدا فهو من المعتدين»- (رواه البيهقي عن النعمان بن بشير رضي الله عنه).

فـلا يصح في التـعـازير أن يبلغ العـقاب مـبلغ حـد من حـدود الله تعالي، والذين يزعمون أن للسلطان أن يعزر حتي الموت إنما يعطون السلطان سلطة مـطلقة لم يعـطها الله لنبـيـه صلى الله عليـه وسلم

لقوله تعالي : ﴿ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ﴾(١)

- بل المنصوص عليـه أن السلطان إذا عزر إنسـانا فمات كـان عليه الضمان، ولحديث أبى بردة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال:

(١) النساء: ١٠٥

«لا يجلد أحد فوق عشر جلدات فى غير حد من حدود الله تعالى».
فلذا إن عزر الإمام رجلاً فمات وجب ضمانه لماروى عمرو بن سعيد عن على رضى الله عنه أنه قال : «ما من رجل أقمت عليه حداً فمات فأجد فى نفسى أنه لادية له إلا شارب الخمر فإنه لو مات وَدَيْتُهُ ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم لم يسنّه »
فالقول بأن للسلطان أن يعزره حتى الموت جهل ومجازفة وقول على الله بغير علم، نعم قالوا: إذا مات أثناء التعزير وكان الآلة من شأنها أن لا تقتل ولا تكسر، ولم يبلغ ضربه حداً حدّه الله ورسوله لا ضمان - وهذا صحيح، لأنه حينئذ يكون موته لا من التعزير، وإنما يكون موته حتف أنفه بقضاء الله سبحانه وتعالى وقدره!!



اضمحلال الاجتهاد فى بعض العصور:

لم يخلُ عصر من العصور من مجتهدين .. حتى ولو كانوا مجتهدين مقيدين بمذهب - لكن - مع الاعتراف بهذه الحقيقة - وُجدت عوامل تاريخية كانت سبباً فى اضمحلال الفكر الإسلامى بعامة والاجتهاد الفقهى بصفة خاصة..!!
لقد خضع الفكر الإسلامى لما خضعت له سائر العلوم، فمع جنوح الأمة الإسلامية إلى الكسل العقلى والدخول فى عصر المتون والشروح، أصاب الفقه الإسلامى الجمود الذى أصاب بقية نشاط

العقل المسلم، وبالتالي فإن التخلف الحضارى للأمة الإسلامية هو أبرز أسباب تخلف الفقه وتوقف الجهاد. ويضاف إلى هذا السبب الرئيسى أسباب أخرى حصرها العلماء فيما يلى :

١ـ تدوين المذاهب، فقد تم تدوين الفقه فسجل علماء كل مذهب اجتهادات الأئمة فى الحوادث التى أفتوا فيها واعتقد العلماء أن ما دون كاف لسد حاجةالمسلمين، فوقفوا أنفسهم على ما بأيديهم من كتب الأئمة المجتهدين.

٢ـ التعصب المذهبى، فقد التزم كل عالم من العلماءمذهباً خاصاً وقف نفسه لدراسة أصوله وترتيب فروعه، ودعوة الناس إلى المذهب الذى اختاره واعتقاد الحق فيما جاء به مذهبه وحده، وقد غالى بعضهم فى هذا، فقد نسب إلى أبى الحسن الكرخى قوله : «كل آية تخالف ما عليه أصحابنا فهى مؤولة أو منسوخة وكل حديث كذلك فهوى مؤول أو منسوخ...» وهى مبالغة شديدة لا يقرها الإسلام.

٣ـ وقد زاد من تعطيل عجلة الاجتهاد أن كتب علماء المذاهب مليئة بالتهجم علي أئمة المذاهب الأخرى، مثالاً لذلك ما قاله الغزالى فى كتابه (المتحول) وما قاله الجصاص الحنفى فى كتابه (أحكام القرآن)، وما قاله الإمام ابن حزم الأندلسى فى كتابه (المحلى) وغيرهم..

٤ـ وكان من أسباب ازدياد الصراع بين المذاهب أن القضاة فى

بعض العصور كانوا يعينون للقضاء على مذهب معين يلتزمونه فى أحكامهم، ولا يجوز لهم الخروج على منصوصات علمائه، وكان التعصب المذهبى والاستشهاد بذلك من عوامل تقييم الفقيه وتزكيته.

٥ـ شيوع التخوف بين العلماء فى تلك العصور، مما جعل الكثير منهم يحجم عن الاجتهاد خوفاً من أن يكيد له أعداؤه ويرموه بالابتداع، فوقف عند أقوال الأئمة المتقدمين.

هذا بالإضافة الى شيوع عوامل الكسل والفتور التى عادة ما تصاحب قرون التخلف.

☆☆☆

بيد أننا - كما ذكرنا - نحمد الله علي وجود نهضة اجتهادية فى العصر الحديث، ولعل الاجتهاد الجماعي يمثل أعلى ما فيها، ولعله يتطور فتصبح فى كل قطر جماعة اجتهادية جماعية، ويصبح هناك مجلس إسلامى أعلى يمثل المسلمين جميعاً فى تقديم الآراء التى تصلح لكل البيئات والظروف والأكثريات والأقليات.

☆☆☆

الاجتهاد مفتوح.. ولم يغلق قط:

شاع بين عامة المسلمين - وربما بين بعض مثقفيهم - أن باب الاجتهاد قد أغلق، وأن الحضارة الإسلامية قد أصبحت عاجزة عن مواجهة العصور - حاشا الله!! - وهى فكرة شاعت خطأ بين

جمهور المسلمين..
هذه الفكرة هى أن باب الاجتهاد قد توقف بعد القرن الرابع الهجرى. ومصدر الخطأ أن القائلين بهذه الفكرة لم يفرقوا بين الاجتهاد الذى يصل بصاحبه إلي تكوين (مذهب فقهى) وبين (الاجتهاد الحر) الذى يجد صاحبه نفسه يلتقى مع مذهب من المذاهب، حتى دون أن يقصده، وحتى دون أن يكبل خطواته مسبقاً.
- نعم : لقد كانت المذاهب قد تكونت، فتوقف الوصول إلي (مذهبية فقهية متكاملة) - ليس عن عقم أو عجز، ولكن لأن طبيعة الفتوى المتأرجحة بين الحل والتحريم والكراهة قد انتظمتها المذاهب السابقة، فالالتقاء مع واحد منها (نهاية حتمية).. أما الاجتهاد الحر وأما ظهور نوابغ مجتهدين وسموا بالانتهاء المذهبى مع أنهم لم يتعمدوه.. أما هذا وذاك فقد استمرا فى حضارتنا ولم ينقطعا أبداً، وكيف يقال بالإنقطاع وابن حزم الأندلسى قد ظهر فى القرن الخامس الهجرى (توفى ٤٥٦هـ)؟
وكيف يقال بالانقطاع وقد شهدت القرون - بعد الرابع - أعلاما كثيرين يعدون بالمئات كانت لهم اجتهاداتهم الخطيرة من أمثال شمس الأئمة الحلوانى إمام أهل بخارى وصاحب المبسوط (ت ٤٤٨هـ) والسرفسى شمس الأئمة (٥٠٠هـ) والإمام أبي حامد الغزالى (٥٠٥هـ) والإمام الرافعى (ت ٦٢٣هـ) وأبى الفرج بن الجوزى (ت ٥٩٦ هـ) وعبد الله العبادى صاحب الفروق (ت ٦٣٠ هـ) والبغدادى سبط ابن الجوزى (ت ٦٥٤هـ) وابن الحاجب (المتوفى سنة ٦٤٦هـ)

وأبى الفضل بن رشد (ت ٦٧٥هـ) وأبى الفتح القشيرى (ت ٧٠٢ هـ) وأبى الحسن الآمدى (٦٣١هـ) والعز بن عبد السلام سلطان العلماء (ت ٦٦٠هـ) والإمام النووى (٦٧٦هـ) والإمام ابن تيمية (ت ٧٢٨ هـ) وتلميذه ابن القيم صاحب أعلام الموقعين، ونجم الدين الطوخى (٧١٦هـ) وشمس الدين الذهبى (ت ٧٤٨ هـ) .. وابن حجر العسقلانى شارح البخارى، وتلميذه السيوطى صاحب (الردّ علي من أخلد إلى الأرض، وجهل أن الاجتهاد فى كل عصر فرض) وتستمر حلقات المجتهدين حتى تصل إلى القرنين الأخرين، فنجد الزبيدى الهندى، وولى الله الدهلوى الهندى، والإمام الشوكانى والصنعانى وابن باديس الجزائرى والدرديرى العدوى، والشيخ الشرقاوى، والإمام محمد بن عبد الوهاب ومحمد عبده وتلميذه السيد رشيد رضا والشيخ شلتوت، والإمام محمد ابو زهرة والشيخ المودودى وأبو الحسن الندوى والشيخ عبد العزيز بن باز والشيخ ناصر الدين الألبانى، والشيخ محمد الغزالى والشيخ سيد سابق.. وغيرهم.

☆ ☆ ☆

إن هذه المسيرة تفيدنا أن الاجتهاد الإسلامى باب لا يمكن أن ينقطع أو يغلق بإذن الله.. وهو من الأدلة الكبرى على أن الإسلام صالح لكل زمان ومكان.. وصدق الله العظيم :

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾(١)

صدق الله العظيم

(١) سورة سبأ الآية (٢٨)

الفهرس

رقم الايداع : ١٦٥٤٧ / ٢٠٠١

الترقيم الدولى ISBN ٩٧٧ - ٢٣٦ - ٣٤٧ - X